التوجيهات البلاغية في التفاسير القرآنية الكشَّاف للزمخشري أنموذجاً

د/عبدالله معايل آل حاضر القحطاني

أستاذ مساعد-كلية الآداب – جامعة بيشة

المملكة العربية السعودية

الملخَّص

هذا البحث تناول الحديث عن التوجيهات البلاغية عند الزمخشري من خلال كتابه الكشَّاف وقد تضمنت خطة البحث التعريف بالزمخشري وتفسيره الكشَّاف،ومن ثَمَّ تناول الباحث عرْضَ بعض التوجيهات البلاغية عند الزمخشري في كشَّافه في سبعة مباحث عرَّج خلالها على كلام المفسرين فيما ذهب إليه الزمخشري من اختياراته،ثم ختم البحث بذكر أهم النتائج التي توصل لها،والتوصيات التي يوصي بها من خلال بحثه.ونسأل الله التوفيق والسداد.

الكلمات المفتاحية:(إعجاز القرآن- المجاز-علم المعاني-علم البديع-الالتفات)

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيّد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين

أمَّا بعد:

فإن كل كتاب يَرِثُّ كلامُه بكثرة البحث فيه، وتنضو الأفكار منه وينضب عطاؤه إلا القرآن الكريم، فإنه كلما قرأته ألفيتَ نفسك غير التي كانت بالأمس تقرأ، فالقرآن هو هو،وما تَلَــقَّاه قارئه اليوم غير ما فُتح عليه منه بالأمس، فإنك لا تجد واحداً من الكتب غير القرآن يعطيك هذا، يؤتيك كل يوم نَفساً تقرأ في كل مرة أولَ مرة، إذ حين تقرؤه ألف مرة تكون كمن قرأ ألف كتاب،ومن يستزده يزده،فكتــاب الله"لو نزعت منــه لفظــة ثم أديــر لســان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد".[1]

ولذا فمعجزة القرآن الكريم البيانية معجزة باهرة،كانت مدار التحدي للعرب أهل اللسان ،والفصاحة،والبيان، وتدرَّج الحق تبارك وتعالى في تحدّيهم حتى بلغ تحدّيه لهم منتهاه بسورةٍ واحدةٍ منه، ومع أنهم قد ارتقوا منزلةً سامقةً في البيان،وبلَغُوا من مقومات البراعة،والفصاحة مبلغهم،إلا أنه خابت مساعيهم ،وتقهقرت محاولاتهم،فأعلنوا عجزهم

[1]-المحرر الوجيز لابن عطية٥٢/١ .

عن مجاراته،وأذعنت رقابهم تعظيماً لنظمه ،وفصاحته،وبلاغته،وهمَّوا بما لم ينالوا فعدَلوا عن مقارعة الحجة بالحجة إلى سلوك سبيل المواجهة لفصاحته بحدّ السيف،فكان هذا بمثابة إعلان عجزهم،وتصاغرِ حجتهم أمامه. [٢]

ومن هذا المنطلق كثرت الدراسات القرآنية حول القرآن الكريم للنظر في إعجازه،وتنوَّعت طرائقها في تسليط الضوء على سمات ذلك الاعجاز،وبيان ما فيه من عظمةٍ،وروعةِ بيان،فتارة تتحدَّث عن علم البيان[٣]،وأخرى عن علم المعاني[٤]،وثالثة عن علمِ البديع[٥].

ولذلك فلا غروَ أن تهتم كتب التفسير ببيان الإعجاز القرآني،فبرزت لدينا العديدَ من التفاسير البلاغية ، كالكشَّاف للزمخشري، ومفاتيح الغيب لمحمد بن عمَّر الرازي الشهير بالفخر الرازي(ت ٦٠٦ه) ،وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم محمد بن محمد مصطفى أبو السعود (ت٩٨٢ ه)،وغيرها من كتب أهل العلم قديماً وحديثا.

بيد أن كتاب الكشّاف للزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ) والذي هو محور هذا البحث- يعتبر من أهمّها على الإطلاق في هذا الجانب لدوره في إبراز عظمة القرآن،وسرّ اعجازه،ولذا يرى الزمخشري رحمه الله:"أن الإعجاز من جهة النظم هو الأهمُّ وأن نظمَ القرآن هو مناط التحدي،ومعنى ذلك أنه يرى أن الإعجاز البلاغي للقرآن

---

[٢]-زعم بعض المعتزلة ومن سار في ركبهم أن العرب كانوا قادرين على مجاراة القرآن الكريم في فصاحته وبلاغته لولا أن الله صرفهم عن ذلك !! وقد بينا بطلان ذلك في بحثنا الذي سينشر قريباً بإذن الله بعنوان:(القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرضٌ ودراسة) .

[٣]- عرَّفه البلاغيون بقولهم:"هو علمٌ يُعرف به أحوال اللفظ العربي-الأمور التي تحصل له من التقديم ،والتأخير ،والحذف،والإنشاء ،والإيجاز،والإطناب،ونحوها-التي بها يطابق مقتضى الحال".الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني ١٢.

٤-عرَّفه الزمخشري بقوله:"المنطق الفصيح المعرب عمَّا في الضمير".الكشَّاف ٤٣/٤،وقيل:"هو علمٌ يعرف به إيراد المعنى بطرقٍ مختلفة في
وضوح الدلالة عليه".التلخيص في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني ص ٢٣٥ .

[٥]- اختلف البلاغيون في عده من علوم البلاغة،وأرجعه بعضهم إلى علمي المعاني،والبيان،وهذا مادرج عليه الزمخشري في توجيهاته،ولذا فالبديع في معناه:"علمٌ يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال،ووضوح الدلالة "معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب ٣٨٣/١. وهو بهذا تابعٌ لعلمي البيان والمعاني .

هو الأهمُّ،وأنه قُطب رحى الإعجاز، وأن بلاغة القرآن كانت مناط التحدي وتبعا لذلك فعلم البلاغة عنده هو الوسيلة إلى إدراك إعجاز القرآن من جهة نظمه".[٦]

وقد صرَّح بذلك في فاتحة كشَّافه حيث قال: "ثم إن أملأَ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكتٍ يلطُف مسلكها، ومستودعاتُ أسرارٍ يَدقُّ سلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرّية[٧] أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ،والنحْوي وإن كان أنحى من سيبويه،واللُغوي وإن علَكَ اللغات بقوّة لحييه لا يتصدّى منهم أحدٌ لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجلٌ قد برعَ في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني،وعلم البيان".[٨]

"وقد سار الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) في كشافه على خطى عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني(ت٤٧١ه) مع تأكيده على أن من يضطلع بتفسير القرآن ليس الفقيه وحده،أو المتكلم،وإنما من أخذ حظه من علمي المعاني والبيان".[٩]

وقد ذكر عبدالرحمن بن محمد الشهير بابن خلدون رحمه الله (ت٨٠٨ه) في مقدمته قوله :"وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه–علم البيان– حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير،وتتبع أي القرآن الكريم بإحكام هذا الفن... فأنفرد بهذا الفضل عن جميع التفاسير "[١٠]

فإذا كانت قضية إعجاز القرآن الكريم قد نالت عناية علماء الإسلام ،وشغلت قلوبهم وعقولهم فلا غرو إذاً أن نجد الزمخشري قد تولى تفصيل قضية النظم في تفسيره الكشَّاف فوقف عند آيات الذكر الحكيم جميعها آية أية ليظهر كل ما يتعلق بكل نص قرآني من مسائل المعاني والبيان والبلاغة.

---

[٦]-تفسير الكشَّاف بين التحليل والتأويل،عبد المحسن العسكر،مجلة العلوم العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،العدد٣٣ ص٨٧.

[٧]-اسمه أيوب وينسب لجدته القِرّية(بكسر القاف وتشديد الراء) معدودٌ من جملة خطباء العرب،قتله الحجاج.انظر:الأعلام للزركلي٣٧/٢.

[٨]-الكشَّاف ٥٧/١.

[٩]-كيف نقرأ تراثنا البلاغي محمد بركات أبو علي ص ٦٤ .

[١٠]-مقدمة ابن خلدون ١٢٧٦/٣ .

والزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) عالمٌ لُغويٌ فذٌّ فهو مؤلفٌ نَحْويٌ له كتبٌ معروفة في النحو التعليمي المعياري وهو كذلك مفسر لغوي له تفسير للقرآن الكريم، وهو في عمله التفسيري لُغويٌ متمرسٌ ذواقةٌ للبيان الجميل يبحث عما وراء ظاهر النص من الدلالات الكامنة في التركيب ليُجلّي للقارئ بعض جماليات التركيب اللغوي القرآني، وهو كذلك غير مسبوق في كثير من نظراته الدقيقة التي قدمها في الكشاف.(١١)

يقول محمد حسين الذهبي رحمه الله (ت١٣٩٧ه):"وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن،وسحر بلاغته،لما برع فيه من المعرفة بكثيرٍ من العلوم،لا سيما مابرز من الإلمام بلغة العرب،والمعرفة بأشعارهم،وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان،والإعراب والأدب".(١٢)

هذا وإن البحث في الأساليب البلاغية عند الزمخشري،لايعني بحال البحث عن المذهب الاعتزالي الذي ينتمي إليه على الرغم من أنه كان أحياناً يلوي التراكيب قصد توجيه معانيها لخدمة مذهبه،ولكن البحث يتجه إلى رصد التوجيهات البلاغية التي طبقها في تفسيره،ليكشف لنا جماليات هذا الكتاب العزيز،ومكامن الإعجاز فيه وهذا ما سيظهر جلياً بإذن الله من خلال ثنايا هذا البحث.

أهمية الموضوع أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من عِظَم المادة المبحوثة التي سيتناولها وهي التوجيهات البلاغية في تفسير الكشَّاف،وذلك لما لها من أثرٍ في بيان إعجاز النظم في كتاب الله تبارك وتعالى،ولما للزمخشري رحمه الله – في هذا الجانب– من أثرٍ فيمن جاء بعده من المفسرين. فهو أحدُ أشهرِ كتب التفسير بالرأي،ويكفيه شرفا عند مؤلفه أنه ألَّفه لجماعته المعتزلة العدلية كما سماهم، ولكنَّ الكتابَ صار له شأن، وبات أهل الفرق الأخرى يرجعون إليه، ويفيدون منه في شقه المهم–العربية وبلاغة القرآن–.

أسباب اختياره :

إن مما حدا بي لاختيار هذا الموضوع أموراً عديدةً،وأسباباً كثيرة لعل من أهمها ما يلي:

١١-الفهم الجمالي للتركيب اللغوي : دراسة في الكشاف للزمخشري، السيد علي محمد خضر،مجلة كليات المعلمين - العلوم الإنسانية، وكالة وزارة التعليم العالي لكليات المعلمين، المجلد الأول، العدد ١، ص١٢٤.

١٢-التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي ٣٠٦/١.

١. خدمة كتاب الله تعالى والنصح له،بالكشف عن بعض مظاهر إعجازه من خلال بيان صُوَره البلاغية،وطرق إعجازه.
٢. رغبة الباحث في زيادة التدبر والتأمل في كتاب الله تبارك وتعالى
٣. التعرف على جهود الزمخشري–رحمه الله–في كشَّافه لإبراز دلائل إعجاز القرآن الكريم،من خلال توجيهاته البلاغية .

الدراسات السابقة :

بالنظر إلى الدراسات السابقة وما وقع تحت يدي منها وجدت العديد من الرسائل والبحوث التي لها تعلُّق بموضوع البحث،وسأتناول كل دراسة بالتوضيح والبيان مبيناً العلاقة بينها وبين هذا البحث وذلك على النحو التالي:

الدراسة الأولى: منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه للأستاذ مصطفى الصاوي الجويني وقد تناولت الرسالة في فصلها الثاني من الباب الثالث الحديث عن منهج الزمخشري في بحث الإعجاز القرآني،وأشار إلى رأيه في قضية الإعجاز لا سيما ما يتعلق بالنظم الذي يبرز أسرار الجمال القرآني في علوم البلاغة الثلاثة–علم المعاني–علم البيان–علم البديع–ولعل من أبرز الموضوعات التي ذكرها الباحث في منهج الزمخشري ما يتصل بعلم البيان،بيد أن الباحث تناوله تناولاً سريعاً.

الدراسة الثانية:الزمخشري لأحمد محمد الحوفي وقد تناولها الباحث بدراسة وصفية،وأسهب في الحديث عن كل ما يتعلق بالزمخشري في الزمان والمكان،ووقف طويلاً عند الجانب الاعتزالي،واللُغوي،والأدبي في الكشَّاف،وما أشار إليه من علم البيان،فقد كان عالة على الدراسة السابقة.

الدراسة الثالثة:البلاغة تطورٌ وتأريخ لشوقي ضيف وقد تناول الباحث في الفصل الثالث من الدراسة ازدهار الدراسات البلاغية على يد عبدالقاهر الجرجاني(ت٤٧١ ه)،ووضعه لنظريتي المعاني والبيان ، ووصل الحديث بالزمخشري(ت٥٣٨ه) ليكشف عن مدى إفادته من هذه الأصول النظرية في تفسير الكشاف،والاضافات التي أضافها الزمخشري على علمي المعاني، والبيان.

الدراسة الرابعة:أثر البلاغة في الكشاف لعمر الملّاحويش في كتابه أثر البلاغة في الكشاف،فقد انضوى تحت هذا العنوان دراسةً مستفيضة من شخصية الزمخشري ،والعصر الذي عاش فيه من الناحية السياسية ، والثقافية، والاجتماعية،وأسهب في حديثه عن دور التفسير في البلاغة العربية،وأثَر الاعتزال في تفسير الكشاف.

الدراسة الخامسة:البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف وأثرها في الدراسات البلاغية للأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى وقد سلك فيه الباحث وفقه الله الحديث عن البلاغة في علومها الثلاثة قبل الكشَّاف وقارنها بما أثبته صاحب الكشَّاف من مسائل بلاغية،وانصب جهده في بيان أثر الكشَّاف في المدارس البلاغية التي جاءت بعده،كمدرسة المفتاح،والمثل السائر،وكتاب الطراز.

الدراسة السادسة:النظرية البلاغية عند الإمام الزمخشري لعطية نايف الغول وقد حاول الباحث في هذه الدراسة الجمع بين ما سبقها من دراسات وأفادت من كتاب الأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى،وركَّز فيها على نظرية البلاغة عند الزمخشري دون الدراسة التطبيقية لتوجيهاته البلاغية،حيث عقد في الفصل الأول نظرية المعنى عند الزمخشري،وفي الفصل الثاني نظرية البيان،وفي الفصل الثالث نظرية البديع،وفي الفصل الرابع نظرية النظم،وإن كانت هذه الدراسة من أهم الدراسات التي كتبت حول الزمخشري وكتابه،مع إفادتها من سابقتها في هذه الجوانب بيد أنها – في نظري–لم تُولِ الجانب التطبيقي لتوجيهات الزمخشري حظها من الدراسة.

ومما سبق عَرضُه من الدراسات حول الزمخشري رحمه الله والجوانب البلاغية في تفسيره يظهر أن العناية بتوجيهاته البلاغية لم تنل الحظ الأوفر من الدراسات السابقة،مما دعاني إلى محاول التعرض لبعض تلك التوجيهات،وإبرازها دون استقصائها فذلك أكبر من مثل هذه الأبحاث،ولعل الله ﷻ أن يهيأ من ينبري لها بدراسةٍ موسعةٍ تُدرسُ فيها كاملَ توجيهاته المبثوثة من خلال تفسيره.

خطة البحث:

تكوَّن هذا البحث في خطته من مقدمةٍ،وتمهيدٍ،وفصلين،وخاتمة على النحو التالي :

- المقدمة:وتشتمل على أهمية الموضوع،وأسباب اختياره،والدراسات السابقة،وخطة البحث ومنهجه.
- التمهيد:وفيه المبحث الأول: الإعجاز القرآني وفيه أربعة مطالب :
- المطلب الأول:القدر المعْجز من القرآن.
- المطلب الثاني:سرّ التدرج في التحدي بالقرآن.
- المطلب الثالث: آراء العلماء قديماً في إعجاز القرآن.
- المطلب الرابع: آراء العلماء حديثاً في إعجاز القرآن.

- الفصل الأول : الزمخشري وكتابه الكشَّاف وفيه مبحثان:
- المبحث الأول:التعريف بالزمخشري .
- المبحث الثاني : تفسير الكشاف وقيمته العلمية
- الفصل الثاني : التوجيهات البلاغية عند الزمخشري،ومواطنها ،وفيه سبعة مباحث:
- المبحث الأول : التوجيهات البلاغية بين عبدالقاهر الجرجاني،والزمخشري.
- المبحث الثاني: بلاغة الالتفات.
- المبحث الثالث: التقديم والتأخير.
- المبحث الرابع: الحذف.
- المبحث الخامس : الكناية.
- المبحث السادس: المجاز.
- المبحث السابع:التهكم.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

قائمة المصادر والمراجع.

منهجية البحث:

سيعتمد البحث بمشيئة الله تعالى على المنهج الوصفي التحليلي وذلك عن طريق وصف بعض التوجيهات البلاغية الواردة في تفسير الكشَّاف للزمخشري رحمه الله وتحليلها .

التمهيد:وفيه المبحث الأول: الإعجاز القرآني وفيه مطالب :

المطلب الأول:القَدرُ المُعجز من القرآن.

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب فتحدَّاهم جميعاً متنزّلاً معهم من مرحلةٍ إلى آخرى حتى وصل بهم التنزّل غايته بسورة من مثله،ومع أنهم كانوا أصحاب البلاغة وفرسان البيان،إضافة إلى ما تميزوا به من سلامة السليقة،وسرعة البديهة إلا أنهم وقفوا أمام تحديه عاجزين،حائرين لا يستطيعون مجاراته في خطابه القرآني،وأسلوبه البياني.

وقد ذهب بدر الدين بن بهادر الزركشي رحمه الله (ت٧٩٤ه) إلى أن:"أقلّ ما يُعجَز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة ، أو ما كان بقدرها...وإن كانت كسورة الكوثر فذلك معجز".(١٣)

١٣- البرهان في علوم القرآن للزركشي١١٦/٢ .

يقول مصطفى صادق الرافعي رحمه الله (ت ١٣٥٦ه):"والذي تطمئن له النفس أن الإعجاز في النص القرآني لا يتعلق بقدرٍ معينٍ من القرآن ، ففي كل آياته وجميعِ سوره معجزة ، وكذلك يتضح الإعجاز البياني في أساليب التعبير التي انفرد بها القرآن الكريم ، كما أنه يتمثل في وجود الفاصلة القرآنية ، التي تعني مناسبةَ وتناسقَ خَتم الآيات مع موضوعاتها".(١٤)

المطلب الثاني :سرُّ التدرج في التحدي

لقد وقع التحدي في القرآن الكريم على أربع مراحل:

المرحلة الأولى:تحدَّاهم الله أن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين قدرٍ معينٍ كما في قوله تعالى :﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٤]

المرحلة الثانية:لما عجزوا تنزَّل معهم فقال:﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]

المرحلة الثالثة: لما لم يستطيعوا أرخى لهم العنان فاكتفى منهم بسورةٍ واحدةٍ فقال سبحانه :﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨] .

المرحلة الرابعة:وقع التحدّي أخيراً بأن يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ قال تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣]

ويوضح لنا صاحب النبأ العظيم سرَّ هذا التدرج في التحدي فيقول:"انظر كيف تدرَّج القرآن معهم من طلـــب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل فكأنه يقول لهم لا أكلفكم بالمماثلة،بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ، وهذا أقصى ما يكون من التنازل ، ولذلك كان آخر صيغ التحدي نزولاً ، ولهذا لم يأتِ التحدي بلفظ من مثله إلا في الآيات المدنية ، بينما مراتب التحدي بالمثل نزلت في السور المكية". (١٥)

ونلمَسُ من صُوَرِ التحدي المتعددة أن المراحل الثلاث الأُول خُوطبَ بها العرب لأن الخطاب وقع في الثلاث السور المكية–الطور،وهود،ويونس– لكنَّ المرحلة الرابعة خُوطبَ بها عامَّة الناس عَرَبهم ،وعجمهم ،ولذلك جاء الخطاب بها في سورةٍ مدنيةٍ–سورة البقرة– وجاء التحدي بـــــــــ"من" التبعيضية للدلالة على شمولية هذا التحدي لعموم الخلق. (١٦)

١٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص١٤١.
١٥- النبأ العظيم دراز: ٨٤ .
١٦-انظر : إعجاز القرآن العظيم لفضل عباس ص ٣١ وما بعدها بتصرف .

المطلب الثالث:آراء العلماء قديماً في إعجاز القرآن.

إن أبرز شيءٍ في إعجاز القرآن هو ما يظهر فيه من الفصاحة،والبلاغة،والبيان،وروعة المعاني،ودقة انسجام الألفاظ في مبانيها ، وتناسقها تناسقاً يتناسب مع عذوبة الأسلوب،والجودة في المعنى ، ثم إحكامها في الربط بحيث تستولي على مشاعر السامعين لهذا القرآن العظيم .

ويمكن لكل متأملٍ أن يستوعبَ الجمالَ في أسلوب الخطاب القرآني ويقف على إعجازه البياني ؛ لأن القرآن في أسلوبه سَلسُ العبارة،واضح المعاني يخاطب العامَّة،والخاصة من الناس والكل يجد فيه المتعة والجمال،ويَشعر بأنه متميزٌ في أسلوبه المتنوّع الذي يُثير المشاعر بما يتضمنه من استفهامٍ تارةً،وأسلوب إطنابٍ،وأوامر ونواهي تارةً أخرى، وما يرد فيه من قصصٍ وأخبـــارٍ للأمم السابقة،إضافة لتنوّعـــه في أسلوب خطابه لنجد فيه المتعة وقمة البيان،وصدق الله إذ يقول:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود:١]

ولذا نجد أن معظم العلماء القدامى–رحمهم الله–قد تحدَّثوا عن الإعجاز اللُغوي في الأسلوب القرآني ،وألَّفوا فيه المصنفات[١٧] ،واعتبروه المعجزة الخالدة التي جاء بها القرآن،وتحدَّى بها العرب وفرسان البلاغة ومن هؤلاء العلماء :

١–**حمد بن محمد الخطابي(ت ٣٨٨ه):**الأديب اللغوي المحدّث يقول رحمه الله في باب الإعجاز:"إنما صار القرآن معجزاً ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"[١٨] كَتَبَ كتابه إعجاز القرآن وركَّز فيه على الإعجاز البياني في القرآن، حيث جعل أقسام الكلام البليغ ثلاثة أقسامٍ كما يلي : القسم الأول: البليغ الرصين الجزل ، وهو أعلى طبقات الكلام بلاغة .

القسم الثاني: الفصيح القريب السهل ، وهو أوسط طبقات الكلام .

١٧-لقد تحدث العلماء رحمهم الله عن إعجاز القرآن الكريم ،فأهل التفسير منهم من تحدَّث عنه في مقدمة تفسيره كصنيع الإمام الطبري في تفسيره ١/٨-١٢وابن عطية الأندلسي في محرره١/٣٨-٤٠،وكالقرطبي في مقدمته الطويلة التي ضمنها مبحث الإعجاز في القرآن١/٦٩-٧٨ ،ومنهم من تحدَّث عنه حين شرع في الآيات التي فيها التحدّث عن هذا الشأن،ونجد كذلك أنهم ضمنوها كتبُ علوم القرآن، فهذا الزركشي في برهانه تحدَّث عنه في النوع الثامن والثلاثون ٢/٩٠-١٢٤،بل تعدى الأمر في عنايتهم رحمهم الله إلى تضمينهم الحديث عنها في كتب العقائد وعدُّوه باباً من أبوابه،سواءً حين ردّهِم على أهل البدع القائلون بخلق القرآن،أو حال تأليفهم لكتب العقائد فهذا البيهقي يعقد مبحثاً خاصاً في كتابه عن دلائل النبوة ويضمنه الحديث عن إعجاز القرآن.دلائل النبوة ١/٢٥٥-٣٠٦.

١٨- إعجاز القرآن الخطابي ص ٨٦.

القسم الثالث: الجائز الطَلِق الرَسل ، وهو أدنى وأقرب طبقات الكلام .

وهذه الأقسام الثلاثة متوفرة في أسلوب البلاغة القرآنية،ووجودها مجتمعة في القرآن بدون تنافرٍ،أو تناقضٍ مظهرٌ آخرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم .

٢-**عبد القاهر الجرجاني(ت ٤٧١ه)** :وهو عالمٌ رائدٌ في علم البلاغة القرآنية،والنظم القرآني وأهم كتبه في هذا المجال " دلائل الإعجاز " انتصر في كتابه لقضية المعنى،والنظم على قضية اللفظ ؛ كما أنه انتصر لفكرة الإعجاز في القرآن وأثبتها بنظرياتٍ ،وآراء قويةٍ،ومقبولة وساند فيها الانتصار لأهل السنة على المعتزلة،ولذا يقول:"إن النظم هو: توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلمات والجُمل والفقرات، فالكلمات في الجملة لا يجمعها ويؤلف بينها إلا النحو". (١٩)

٣-**محمد بن الطيب الباقلاني(ت٤٠٣ه):**ألّف كتاباً مشهوراً أسماه " إعجاز القرآن " رداً على مطاعن الملاحدة في عصره ، وتضمَّن الكتاب أهم أفكاره عن فكرة الإعجاز في النص القرآني والتي مُلخصها:

أ- اعتبر القرآن الكريم المعجزة للنبي ﷺعبر الأجيال إلى يوم القيامة ، وقال : إن تحدي الإنس والجن بهذا القرآن قائم إلى يوم الدين .

ب-أنَّ القرآن معجزٌ بأسلوبه وبلاغته،وأنَّه تحدَّى العرب فعجزوا عن معارضته .

ج- عدَّ وجوه الإعجاز في القرآن عشرة ذكر منها:نظم القرآن،وأسلوبه،وبلاغته وتوسَّع في ذلك كثيراً ثم أوضح باقي الوجوه الأخرى لإعجاز القرآن. (٢٠)

ويمكننا القول أن خلاصة رأيه في الإعجاز البلاغي تتلخص في أن أسلوب القرآن خارج عن الأساليب المعروفة ولم يستطع العرب مجاراة القرآن في أسلُوبه الأدبي ،وأنَّ القرآن أجاد في كل ما عرض من موضوعات ، وأنَّ القرآن معجز للجن والإنس ، وأنَّ أساليب البيان العربي وجدت في القرآن أعلى مستوى ، وأن كلمات القرآن،وجُمَله متميزة،وأسلوبه في الخطاب يعرفه الناس إذا وُضِع بين كلام البشر الشعري،أو النثري ويكون حلياً،وزينةً،وجواهرَ لأنه كلام رب العالمين. (٢١)

١٩- انظر: دلائل الإعجاز للجرجاني ص٤١.
٢٠-انظر: إعجاز القرآن للباقلاني ١٩٢.
٢١- بيان في إعجاز القرآن لمحمد السباعي الديب ص ٢٠.

المطلب الرابع : آراء علماء العصر الحديث في إعجاز القرآن:

لم يكن الحديث عن القرآن وإعجازه حكراً على من سبق من العلماء رحمهم الله تعالى ،فقد تحدَّث علماء العصر الحديث في العقود الماضية عن إعجاز القرآن،وروعة بيانه،وسمو نظمه،فمن هؤلاء العلماء:

١- **محمد رشيد رضا(ت١٣٥٤ه):**تحدث الشيخ رضا عن الإعجاز أثناء تفسيره لآية التحدَّي في سورة البقرة ، ويرى أنَّ التحدَّي بعشر سور كما جاء في سورة هود مقصود به التحدي بقصص وأخبار الأمم الماضية ، وعرض في تفسيره لأهم وجوه الإعجاز ، وحصرها في إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه ، وبلاغته وبما فيه من علم الغيب،وبما يحويه من علوم دينية وشرعية ، وبتحقيق مسائل كثيرة كانت مجهولة عن الناس.(٢٢)

٢- **مصطفى الرافعي(ت١٣٥٦ه):** وهو يرى أن الوجه الأساسي في الإعجاز هو "نظم القرآن" مع بعض الوجوه الأخرى للإعجاز ، وحصَر مظاهر الإعجاز في ثلاثة أمور وهي كالتالي :

أ- الحروف وأصواتها . ب- الكلمات وحروفها .

ج- الجُمَل والكلمات .

فهو يرى أن الإعجاز يشمل الحروف،والأصوات،ويَعتبِر سقوط حرفٍ،أو إبداله بغيره يسبب خللاً واضحاً فيقول:"إن حروف الكلمة متناسقة مع بلاغة النظم بالهمس،والجهر،والقلقلة،والصفير،والمد،والغنَّة".(٢٣)

٣-**محمد عبد الله دراز(ت ١٣٧٧ه):**ألَّف كتابه "النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن" والذي يُعتبر من أهم الكتب العلمية في إعجاز القرآن وقسمه إلى قسمين :**الأول :** تحديد القرآن .**والثاني :** بيان مصدر القرآن وقسَّمه إلى مراحل :

المرحلة الأولى : بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاءً ذاتياً من الرسول عليه الصلاة والسلام.

المرحلة الثانية : ناقش الذين زعموا أن الرسول أخذ القرآن من مُعلّم وأبطل هذا التصور .

٢٢- انظر:تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٩٦/١.

٢٣- إعجاز القرآن للرافعي ص ١٤٥ وما بعدها،وانظر إعجاز القرآن الكريم لفضل عباس ص٨٨ وما بعدها.

المرحلة الثالثة : ظروف الوحي وملابساته .

المرحلة الرابعة : البحث في جوهر القرآن نفسه وحقيقة مصدره .

ويرى الدكتور دراز رحمه الله(ت١٣٧٧ه): أن الإعجاز القرآني يَكمُنُ في ثلاث نواحي :

الناحية الأولى:الإعجاز اللغوي ويعتبره أظهر وجوه الإعجاز ؛ لأنه هو الذي وقع به التحدي.

الناحية الثانية:الاعجاز العلمي وهو يتحدث عن إشارات علمية في الآيات القرآنية .

الناحية الثالثة:الإعجاز التشريعي الإصلاحي الاجتماعي . [٢٤]

الفصل الأول

الزمخشري وكتابه الكشاف وفيه مباحث:

المبحث الأول:التعريف بالزمخشري . هو محمود بن عمر بن أحمد أبو القاسم الزمخشري جار الله كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل متفنناً في علومٍ شتى، معتزليّ المذهب،ولد بزمخشر من أعمال خوارزم يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة.[٢٥]

كان رحمه الله من أهل خوارزم، وزمخشر: إحدى قراها القريبة منها،وممّن يُضربُ به المثل في علم الأدب والنحو واللغة لقى الأفاضل والأكابر، وصنّف التصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك،دخل خراسان وورد العراق، وما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه وتتلمذوا له، واستفادوا منه وكان علّامة الأدب، ونسّابة العرب، أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل، وتحطُّ بفنائه رحال الرجال، وتحدَّى باسمه مطايا الآمال ثم خرج منها إلى الحج، وأقام برهة من الزمان بالحجاز؛ حتى هبّت على كلامه رياح البادية، وورد مناهل العرب العاربة، ثم انكفأ راجعا إلى خوارزم، ثم قوى عزمه على الرحلة عنها والعودة إلى الحجاز ،ولأبي القاسم العديد من التصانيف منها: الكشَّاف في تفسير القرآن،وهو أشهرها،وله أساس البلاغة في اللغة،والفائق في غريب الحديث،ونكت الإعراب في غريب الإعراب (في غريب إعراب القرآن) ،وكتاب متشابه أسماء

٢٤ -انظر: إعجاز القرآن الكريم لفضل عباس ص٩٤ وما بعدها.

٢٥ - لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٤/٦،إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب للحموي٢٦٨٨/٦ .

الرواة،ومقامات في المواعظ ،توفي بخوارزم، ليلة عرفة من سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.(٢٦)

المبحث الثاني : تفسير الكشاف وقيمته العلمية

كتاب الكشَّاف يُعدَّ حقاً صورة مزدهرة مشرقة لما وصلت إليه البلاغة العربية من تطورٍ ونضجٍ وازدهارٍ فكتاب الكشَّاف إلى جانب كونه تفسيراً جليلاً للقرآن الكريم، كتابٌ غنيٌ بالبلاغة ومسائلها، بل يُعدُّ مثالاً فريداً في البلاغة التطبيقية العملية المقرونة بالأمثلة والشواهد الحية من القرآن الكريم.

إنَّ الكلام على تفسير الكشَّاف واسع المدى، متعدد الجوانب، فهو أحد أشهر كتب التفسير بالرأي، ويكفيه شرفا عند مؤلفه أنه ألفه لجماعته المعتزلة العدلية كما سماهم، ولكن الكتاب صار له شأن، وبات أهل الفرق الأخرى يرجعون إليه، ويفيدون منه في شقه المهم، الذي هو العربية وبلاغة القرآن(٢٧)

ومما تجدر الإشارة إليه أنه تقدم للزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) تفسير للقرآن الكريم سُمىَّ في بعض المراجع بـــ (الكشَّاف القديم) وأشار إليه الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه) في مقدمة الكشَّاف،وأنها إملاءات أملاها على بعض علماء المعتزلة لما ألحَّوا عليه في إملاء تفسير للقرآن تحدَّث فيها عن فواتح القرآن الكريم، وحقائق سورة البقرة ويصفها الزمخشري نفسه بأنها إملاءات طويلة يكثر فيها السؤال والجواب وقد أفاد منها في تأليف الكشَّاف فيما بعد بأن تحاشى الإطالة والإطناب.(٢٨)

وقد ذكر الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) ما دعاه إلى تفسير القرآن فقال:" أنه رأي بعض إخوانه من رجال البلاغة والاعتزال يرجعون إليه في تفسير الآيات فيستحسنون غاية الاستحسان ما يُبرزُ لهم من مكنونات المعاني ويستطيرون شوقاً إلى مُؤلفٍ يُضمُ أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا مقترحين عليه أن يضم ما يعلمه من حقائق التنزيل في كتاب،فتباطأ واستعفى لما يرى عليه أهل الزمان من رثاثة أحواله،وركاكة رجاله،وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلا عن أن تترقى إلى الكلام المؤسس

٢٦-انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي٢٦٨/٣، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب للحموي٢٦٩١/٦ .

٢٧-تفسير الكشَّاف بين التحليل والتأويل لعبد المحسن العسكر مجلة العلوم العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد٣٣، ص.٨٢

٢٨-انظر:آراء الزمخشري في المفصل التي خالفها في الكشاف،لعبدالعزيز التويجري،مجلة العلوم العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،العدد١٨،ص ٧٢ .

على المعاني والبيان،ثم زاد الاستشناع وتَدخَّل بعض الأمراء فضاقت على المستعفي الحيل،وعيَّت به العلل وتفرغ لتفسير كتاب الله".[٢٩]

وقد صادف تفسير الكشَّاف حَظوةً بالغةً لا عند رجال الاعتزال وحدهم بل عن القارئين جميعا من أبناء الإسلام فجعله أهل السنة مصدراً عاماً من مصادر التفسير واكتفوا بالتعليق الكاشف على مالا يرتاحون إليه من آراء الاعتزال وانتشر الكتاب انتشار الضوء يبدد الحنادس في كل مكان. [٣٠]

ولقد أبدع الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ) في الكشف عن بلاغة القرآن أولاً،ثم في إعرابه ثانياً حتى اعترف له الكثير بالفضيلة في ذلك وحتى إن كثيراً مما نجدُ في كتب التفسير من الأسرار البلاغية،واللطائف البيانية،والنكات الإعرابية منقولٌ من الزمخشري مباشرة، أو منقولٌ من أتباعه وأهل مدرسته السائرين على طريقته سواءً أشير إلى ذلك أم لم يُشَر إليه،كما نجد في المصادر البلاغية من يعتمد على الكشَّاف في تحليله،واستنباطه كالجامع الكبير لضياء الدين نصر الله ابن الأثير(ت٦٣٧هـ)، والطراز ليحيى بن حمزة العلوي(ت٦٨٣هـ) والإيضاح لجلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني(ت ٧٣٩هـ).[٣١]

وكتاب الكشَّاف على صورته التي وصل عليها يمثل قمةً مرتفعةً ساميةً في ازدهار الدراسة البلاغية، ليس عند المعتزلة فقط،بل في مجال الدراسات البلاغية عامة، ففي هذا الكتاب عُصارات مجهوداتِ السابقين جميعاً من معتزلةٍ،وغيرهم وزبدةُ ما تمخضت عنه أذهان البلاغيين العرب الذين تقدموه.[٣٢]

لقد كان الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ)موهوبًا حصيفًا وقد ازداد أسلوبه العالي من قيمة تفسيره، فقيمة هذا التفسير- بصرف النظر عما فيه من اعتزال- تفسير لم يُسبق مؤلّفه إليه لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف ذلك إذ برع في

---

[٢٩]-الكشَّاف١/١٥.

[٣٠]-انظر:مع جار الله الزمخشري لعبد العزيز عبده،دارة الملك عبد العزيز المجلد السابع العدد ١ ص٢٠٣.

[٣١]-انظر:تفسير الكشَّاف بين التحليل والتأويل عبد المحسن العسكر مجلة العلوم العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد ٣٣ ص ٨٩ .

[٣٢]-انظر:التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري ،لوليد قصاب ص٢٢٤.

معرفة الكثير من العلوم لاسيما الإلمام بلغة العرب، بل وقد جمع كل الوسائل التي لابدّ منها للمفسّر فأخرج لنا هذا الكتاب العظيم.[٣٣]

حاول الزمخشري(ت٥٣٨هـ) قبل أن يكتب هذا التفسير الكامل أن يُسوّد صُحفاً في هذا الباب يراها مَثلاً يحتذي في التفسير،ولم يكن يقدر أنه سيكتب تفسيرا كاملا، وكانت هذه الصحف كأنها موسوعة قرآنية طال فيها القول وتشعبت فنونه ودارت حول سورة الفاتحة وبعض من سورة البقرة وقد وصف الزمخشري(ت٥٣٨هـ) هذه الصحف بأنها مبسوطة كثيرة السؤال والجواب طويلة الذيول والأذناب، وقد أراد بهذا البسط وهذا الطول أن ينبه إلى ما يحتويه النص القرآن الكريم من علوم زاخرة وآداب جمة ومعارف عالية، ولكنه رجع فأدرك أن البيئة الفكرية في زمانه لا تطيق هذه الموسوعة وأنها تحتاج إلى تفسير موجز يعينهم على فهم مذهبهم من القرآن الكريم فكتب تفسيره الذي بين أيدينا.[٣٤]

وإذا كان الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ) قد اعتزّ بكشّافه وبلغ إعجابه به إلى حد جعله يقول فيه ما قال من تقريظ له وإطراء عليه، فقد اعترف له غيره بالبراعة وعدّوا الكتاب واحد في بابه وعلما شامخا في نظر علماء التفسير وطلابه، وإن أخذوا عليه المآخذ التي يرجع أغلبها إلى ما فيه من ناحية الاعتزال.

ولذا نجد محمد بن يوسف أبو حيان رحمه الله (ت٧٤٥هـ) يورد في مقدمته ثناًء على هذا الكتاب ومصنفه فيقول: " ولما كان كتابان في التفسير[٣٥] قد أنجدا وأغارا، وأشرقا في سماء هذا العلم بدرين وأنارا، وتنزلا من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العين، والذهب الإبريز من العين...وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص، إلا أن الزمخشري قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة،فربما سنح له آبي المقادة فأعجزه اغتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلا لمن يصطاده، وغفلا لمن يرتاده..."[٣٦] .

لكنَّ أكثر ما أقلق العلماء وأزعجهم هو مشربه العقدي،فهو معتزلي جَلِد،ولذا قال بعضهم:"استخرجت من الكشَّاف اعتزالاً بالمناقيش".[٣٧]

---

[٣٣]، التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ٣٠٧/١ .

[٣٤]-البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية محمد أبو موسي ص٥٩.

[٣٥]-يقصد تفسير ابن عطية،وتفسير الكشَّاف للزمخشري.

[٣٦]- تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٢٠/١.

[٣٧]- نقلها السيوطي عن البلقيني .انظر الاتقان ١٩٠/١ .

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية رحمه الله (ت ٧٢٨ه)في كتابه مقدمة في أصول التفسير :"ومن هولاء-يعني المعتزلة-من يكون حسن العبادة،يدسُّ البدع في كلامه دسًّا،وأكثر الناس لا يعلمون ،كصاحب الكشاف ونحوه".[٣٨]

وألَّف أحمد بن محمد الاسكندراني المشهور بابن المنيّر رحمه الله (ت٦٨٣هـ) كتاباً سماه الانتصاف في بيان اعتزاليات الكشَّاف.

وكذا ألَّف الإمام عبدالله بن يوسف الزيلعي رحمه الله (ت٧٧٢هـ) رسالة في تخريج أحاديث الكشَّاف،وما فيه من القصص والأخبار،وبيَّن ما فيها من الصحيح،والضعيف،ثم لخصها الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني رحمه الله (ت٨٥٢هـ) في رسالة أسماها:الكاف الشاف من تخريج أحاديث الكشاف وقد طُبعت مع بعض نسخ الكشَّاف.

ومما تقدَّم يمكننا القول بأنَّ لتفسير الكشَّاف وجهين:أحدهما مشرقٌ،والآخر مظلمٌ،فالمشرق مافيه من بيانٍ لفصاحة القرآن وبلاغته،والمظلم مافيه من تحريفِ الآيات التي تخالف مذهبه.

الفصل الثاني :

التوجيهات البلاغية عند الزمخشري،ومواطنها ،وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول:التوجيهات البلاغية بين عبدالقاهر الجرجاني،والزمخشري.

من المقرر أن:"الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ) أوَّل من دَرَس بلاغة عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في كتابيه-دلائل الاعجاز،وأسرار البلاغة- وتمثلها تمثلًا بنى من خلاله كتابه التفسير الذي جاء في معظمه تطبيقًا لبلاغة عبد القاهر الجرجاني وبخاصة نظرية النظم فاتخذ البلاغة أصلا في فهم الآيات وتوجيه معانيها".[٣٩]

وما توجه الزمخشري(ت٥٣٨ه) إلى اقتناص فوائد المعاني من التراكيب إلا بوحي عبد القاهر(ت٤٧١ه) وعلى هدى سناه احتذاه الزمخشري احتذاءً نشُمُ منه رائحته في كل سطرٍ من سطور الكشَّاف، فالذي يقارن صنيع عبد القاهر بصنيع الزمخشري يجد الأوَّل قد رسم الخطة وأعدَّ المثال،وبيَّن الطريق ويجد الثاني قد تولى التنفيذ الدقيق لما

---

[٣٨]- مقدمة في أصول التفسير ص٣٨.

[٣٩]- مصطلح التخييل مفهومه،وموقف الزمخشري منه في تفسير الكشّاف مصطفى المشني، مجلة المنارة مجلد١١ العدد٣ ص ٩٤.

رسم صاحبه حيث تتبع آيات الكتاب الكريم آية آية ليوضح ما عناه الجرجاني بالنظم القرآني. (٤٠)

فالزمخشري في نظراته البيانية والبلاغية كان يحاول تطبيق ما نادى به عبد القاهر الجرجاني في–دلائل الاعجاز،وأسرار البلاغة– بعد أن تمثَّله بحيث أصبح يصدُرُ عنه في كل أحكامه.(٤١)

وهذا المنهج الذي سار عليه الزمخشري لم يبتدعه من عنده بل سار فيه على خطى سابقيه مستفيدا من نظرية النظم التي اتضحت معالمها على يد عبد القادر الجرجاني، وهكذا ابتدأ صاحب الكشاف من حيث انتهى سابقوه، فهو لم يدرس البلاغة دراسة نظرية ولم يكتب عنها كتابًا مستقلًا ولم يكن لمباحثه البلاغية وحدة متماسكة نستطيع أن نخرج منها بمنهج متكامل، أو نظرية ذات أصول وقواعد في علم البلاغة كما كان الحال عند عبد القاهر وجهودات البلاغيين الذين تقدموه، بل استوعب ذلك كله استيعاباً كاملاً ثم راح بما أوتي من ذوق أدبي مرهفٍ،وحسٍ فنيٍ صادقٍ يطبق ما قرأه في تفسيره.(٤٢)

المبحث الثاني : بلاغة الالتفات.

"إن في آي القرآن الكريم أسرارًا بلاغية ولغوية ما تزال تدعو للتأمل، من ذلك ما يوصف بـــ "الالتفات" فهناك آيات ونصوص في القرآن الكريم تَعرِضُ لموضوع بعينه، ثم يأتي الالتفات ليقدم نصًا جديدًا في ثنايا الآية الكريمة، وكثيرا ما يكون ذلك معللا بقضايا ذات علاقة بالمعني، وذات علاقة بالتمكين الدلالي في الخطاب القرآني الكريم، أو من أجل لفت انتباه المتلقي لتحولات الحوار، ومقاربات المعني في نص الآية"(43)

ولمنزلة الالتفات نجد أن"أهل البلاغة العربية دأبهم الالتفات،ويستكثرون منه،وما ذاك إلا لأنهم يرون الانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أدخَلُ في القبول عند السامع،وأكثرُ لنشاطه،وأعظمُ في إصغائه،وإذا كانوا يستحسنون قِرَي الأضياف،وهو دأبهم،وعليه هُجيراهم،وعاداتهم فيخالفون فيه بين لونٍ ولون،وطعمٍ وطعم ،أفلا يستحسنون نشاط

٤٠- انظر:مع جار الله الزمخشري لعبد العزيز عبده دارة الملك عبد العزيز، المجلد٧، العدد ١، ص٢٠٢.

٤١-انظر:الكشَّاف عن حقائق التنزيل لمحمود الشرقاوي،الوعي الإسلامي،السنة ٢٤ العدد ٢٨١، ص١١٥.

٤٢-انظر:التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة لوليد قطاب ص٢٢٤.

٤٣- الالتفات في السرد القرآني أحمد بشارات ٣ .

الأفئدة،وملائمة القلوب بالمخالفة بين أسلوبٍ وأسلوب،بل يكون هذا أجدر،فإن اقتدارهم على مخالفة أساليب الكلام أكثر من اقتدارهم على مخالفة الأطعمة،لأن البلاغة في الكلام عليهم أيسر،وهم عليها أمكن وأقدر".[٤٤]

تعريف الالتفات في اللغة:أطبق أصحاب المعاجم على أنَّ الالتفات هو:صرف الشيء عن جهته إلى أخرى، سواءً أكان ذلك فيما يتعلق بالجهات،أو فيما يتعلق بالأمور المعنوية كالآراء والأحاسيس وغيرها،قال إسماعيل بن حماد الجوهري رحمه الله(ت٣٩٣هـ) :"اللفت: الليُّ..ولَفَت وجهه عني أي صرفه، ولفته عن رأيه:صرفه".[٤٥]وقال الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ):"وأصل اللفت ليُّ الشيء عن الطريق المستقيمة". [٤٦]

تعريف الالتفات في الاصطلاح:لابد من الإشارة هنا أولاً إلى أن الاتفاق الذي وجدناه في تعريف الالتفات في اللغة، لم نجده في الاصطلاح، بل على العكس من ذلك:"فهناك اختلافٌ،وتنازعٌ،وتباينٌ في تعريف الاصطلاح عند البلاغيين عموماً،ويزداد اختلافهم عند تقسيمهم مباحث الالتفات،ثم بيان بواعثه ،وعن كل هذا نجد اختلافهم في اعتداد الالتفات أمِنَ المعاني،أم من البديع،أم من البيان".[٤٧]

ويمكننا القول :"إن التحديدات للمعنى اللغوي والاصطلاحي للالتفات "تتمثل في عدول الشخص عن النظر في اتجاهه الأصلي وتحويله البصر إلى اتجاه ثان مغاير للأول بطريقة مفاجئة وإلى هذا المعنى اللغوي يعود مفهوم الالتفات اصطلاحاً فقد شبَّه العرب حالة المتكلم وهو يُحوّلُ وجهة الكلام من خطاب الحضور مثلاً إلى خطاب الغيبة بحالة الشخص الذي ينظر إلى شيء محدد ثم يلتفت عنه، وأطلقوا على هذا التحول في صلب اللغة مصطلح الالتفات الذي أطلقوه في الأصل على الحركة العضوية".[٤٨]

---

[٤٤]- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة للعلوي ص ٢٦٧.

[٤٥]-الصحاح في اللغة للجواهري،فصل اللام.

[٤٦]-الفائق في غريب الحديث ٣/٣٢٤، وانظر:لسان العرب لابن منظور مادة: لفت، القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة: لفت.

[٤٧]-تنوع صور الالتفات في القرآن الكريم ومقاصده البلاغية والإعجازية رسالة ماجستير للباحث:إسماعيل الحاج عبدالقادر.

[٤٨]-الالتفات في القرآن الشاذلي الهيشري ،حوليات الجامعة التونسية العدد ٣٢ ص ١٤١.

وجاء يحيى بن حمزة العلوي رحمه الله (ت٦٨٣هـ) ليجمع شتات ما ذكره البلاغيون قبله في تعريف الالتفات فقال:" ومعناه-أي الالتفات-في مصطلح علماء البلاغة،هو العدولُ من أسلوبٍ في الكلام،إلى أسلوبٍ آخرٍ مخالفٍ للأوّل".(٤٩)

وبهذا يتبيَّن لنا أن المادة تدور حول محورٍ دلاليّ واحدٍ وهو:التحول أو الانحراف عن المألوف السائد، وعلى هذا الأساس كان استخدام مصطلح الالتفات في تراثنا البلاغي للدلالة على التحول أو الانحراف الذي يحدث في مسار التعبير.

"ونجد كتب التفسير اهتمت بالالتفات ولكن اهتمامها به انحصر في أمثلة مستقلة في سياقات معلومة، ولم تكن غاية المفسرين التأليف بين هذه الأمثلة،والنفاذ إلى حقيقة الالتفات، وأصل التركيب فيه،وطرقه المتداولة في القرآن،وشروطه التي يتحقق بها".(٥٠)

ويلخِصُ الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨هـ) لنا في كشَّافه عمله في الالتفات،ليبرز لنا هذه الظاهرة بكل ألوانها وأبعادها وذلك في المواطن التالية:

الموطن الأول:يقول عند قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة: ٥] "فإذا قلتَ: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلتُ: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم(٥١) وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات(٥٢):

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالإثْمدِ ... ونَامَ الخَلِيُّ ولَم تَرْقُدِ

وبَاتَ وباتَتْ لهُ لَيْلةٌ ... كلَيْلةِ ذِي العائرِ الأرْمَدِ

وذلكَ مِنْ نَبَإٍ جَاءَنِي ... وخُبِّرْتُهُ عن أَبِي الأَسْوَدِ

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوبٍ واحدٍ، وقد تختص مواقعه بفوائد".(٥٣)

٤٩- الطراز للعلوي ص ٢٥٦.

٥٠- الالتفات في القرآن للهيشري الشاذلي،حوليات الجامعة التونسية العدد٣٢ ص١٣٣.

٥١- قسَّم الجمهور الالتفات إلى ستة أقسام على النحو التالي:(الالتفات من الغيبة إلى الخطاب-ومن الخطاب إلى الغيبة-والالتفات من الخطاب إلى التكلم-ومن التكلم إلى الخطاب-الالتفات من الغيبة إلى التكلم-والالتفات من التكلم إلى الغيبة).

٥٢-لامرئ القيس بن حجر الجاهلي، وقال ابن هشام: هو غلط، وقائله امرؤ القيس بن عابس الصحابي، وقيل لعمرو بن معد يكرب . انظر:كتاب شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية ص٢٨٥.

٥٣-الكشَّاف ١/ ٨٩.

قال الفخر الرازي رحمه الله(ت٦٠٦ه) :"وقوله :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتقال من لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب".(٥٤)

وكذا قال أبو حيان رحمه الله(ت٧٤٥ه) عند هذه الآية الكريمة: :"﴿وَإِيَّاكَ﴾ التفات لأنه انتقال من الغيبة، إذ لو جرى على نسقٍ واحدٍ لكان إياه،والانتقال من فنون البلاغة، وهو الانتقال من الغيبة للخطاب أو التكلم، ومن الخطاب للغيبة أو التكلم، ومن التكلم للغيبة أو الخطاب،والغيبة تارة تكون بالظاهر،وتارة بالمضمر،وشرطه أن يكون المدلول واحداً،ألا ترى أن المخاطب بإياك هو الله؟"(٥٥).

الموطن الثاني:يقول الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه)في معرض حديثه عن قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]

"لما عدَّد اللَّه تعالى فِرَقَ المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها، ويحظيها عند اللَّه ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور عند قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهو فنٌّ من الكلام جزل، فيه هزٌّ وتحريك من السامع". (٥٦)

ويؤيد الفخر الرازي رحمه الله (ت٦٠٦ه) هذا الاختيار فيقول:"اعلم أنَّ في هذه الآيات مسائل:المسألة الأولى: أن الله تعالى لما قدم أحكام الفرق الثلاثة، أعني المؤمنين والكفار والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب، وهو من باب الالتفات ،...فهذا الانتقال من الغيبة إلى الحضور".(٥٧)

وبمثله أشار محمود شهاب الدين الألوسي رحمه الله (١٢٧٠ه) حيث قال:" لما بيَّن سبحانه فِرَقَ المكلفين، وقسمهم إلى مؤمنين، وكفار، ومذبذبين، وقال في الطائفة الأولى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وفي الثانية:﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وفي الثالثة:﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ وشرح ما ترجع إليه أحوالهم دنيا وأخرى،فقال سبحانه في الأولى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفي الثالثة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ۖ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أقبل عزَّ شأنه

٥٤- تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١/ ٢٥٤

٥٥-البحر المحيط ١٤١/١ .

٥٦-الكشَّاف ١/ ٨٩.

٥٧- تفسير مفاتح الغيب للرازي٢/٥٨.

عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزاً لهم إلى الإصغاء وتوجيهاً لقلوبهم نحو التلقي،وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذيذ المخاطبة". (٥٨)

الموطن الثالث:في قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨]

قال الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه) –:"فإن قلتَ : هلَّا قيل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: إني رسول الله إليكم؟ قلتُ: عَدَلَ عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التي أُجريت عليه،ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائناً من كان، أنا أو غيرى، إظهاراً للنصفة،وتفادياً من العصبية لنفسه". (٥٩)

ويظهر جلياً من هذه الآية الكريمة أن الأسلوب جرى فيها على طريقة التكلم في إعلان الرسول صلى الله عليه وسلم عن رسالته للناس﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ثم تحول إلى طريق الغَيبة–الاسم الظاهر–عند دعوتهم للإيمان﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾إذ لو جرت الآية الكريمة على نسقٍ واحدٍ لقال:(فآمنوا بالله وبي).

وقد ذكر محمد بن مصطفى أبو السعود رحمه الله(ت ٩٨٢ه) في تفسيره النكتة من هذا الالتفات فقال:"الالتفات إلى الغيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال بأمره".(٦٠)

المبحث الثالث: التقديم والتأخير.

إن ظاهرة التقديم والتأخير من الظواهر الأسلوبية التي تحقق أغراضاً كثيرة في الجملة القرآنية،ويتجلى أثر هذا المنزع البلاغي الأصيل فيما يضيفه على معناها من دقةٍ،وإعجازٍ،وعلى أسلوبها من روعةٍ،وجمال، والتقديم والتأخير من المباحث البلاغية التي أولاها علماء البلاغة قديماً،وحديثاً أهميةً بالغة،فهاهو عبدالقاهر الجرجاني رحمه الله (ت٤٧١ه) يقول بأنه :" بابٌ كثير الفوائد،جمُّ المحاسن،واسعُ التصرف،بعيدُ الغاية، لايزال يفترّ لك عن بديعه ،ويفضي إلى لطيفه،ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه،ويَلطُف لديك

٥٨-روح المعاني للألوسي ١/ ٨٩.
٥٩-الكشّاف ٢/ ١٦٧.
٦٠- إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣/ ٢٥٣.

موقعه،ثم تنظر فتجد سبب أن راقَك،ولَطُفَ عندك ،أن قدَّم فيه شيء،وحوَّل اللفظ عن مكانه".[٦١]

تعريف التقديم والتأخير :بالرجوع للمعاجم اللُغوية نجد أن (القاف–الدال–الميم)أصلٌ يدلُّ على السبق ،جاء في القاموس المحيط "ومقدمة الجيش متقدّموه،ومن كل شيء أوله"[٦٢].

ويقول الزمخشري:"(ق د م) :تقدَّمه وتقدَّمَ عليه واستقدم...ومنه قادمة الرَّحل،نقيض آخرته".[٦٣] فمُقدّمُ كل شيء نقيضُ مؤخره".[٦٤]

ومن خلال ما تَقدَّم ذكره من تعريفات لُغوية لمادتي: (ق،د،م) (أ،خ،ر) نصل إلى أن:التقديم والتأخير نقلٌ وتحريكٌ لمواضع الألفاظ داخل السياق،فكل تأخير هو تأجيل،وكل تقديمٍ هو سبقٌ،فكلا المادتين تغيير وخروج بالكلمات عن رُتَبِها الأصلية .

ولما وجَدَ علماء المعاني شيئاً من النقل والتحريك بين مكونات العبارة في اللغة العربية أخذوا هذا الثنائي–التقديم والتأخير–وجعلوه مصطلحاً لأحد تقنيات النظم فيها،لذا يرى الجرجاني رحمه الله(ت٤٧١هـ) أن:"النظم هو توخي معاني النحو والتصرف في الأبواب النحوية،ومما يتصرف فيه التقديم والتأخير". [٦٥]

"إن التقديم في المتَعلِقَات ينقسم الكلام فيه إلى قسمين:الأول:تقديم المتَعلِقَات على العامل،والثاني:تقديم بعض المتَعلِقَات على بعض،والزمخشري يُبيّن فائدة التقديم للمعمول على العامل ويشرح ما تضمنه من معنى الاختصاص في مواطن كثيرة".[٦٦] ومن أمثلة ما ذكره الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨هـ) في ذلك:

الموطن الأول:قال تعالى﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥].

فنجد أن الحقَّ تبارك وتعالى قدَّم مفعولي نعبد،ونستعين لقصد إفادة الاختصاص وهو ما أشار إليه الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ) عند هذه الآية الكريمة فقال:"فإن قلتَ :لم

---

[٦١]-دلائل الإعجاز للجرجاني ص ١٠٦.
[٦٢]-القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة:(ق،د،م).
[٦٣]-أساس البلاغة للزمخشري مادة:(ق،د،م).
[٦٤]-لسان العرب لابن منظور مادة: (ق،د،م).
[٦٥]-دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٨٢.
[٦٦]-البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري محمد أبو موسى ص٣٣٦.

قدَّم العبادة على الاستعانة؟ قلتُ:لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا[٦٧] الإجابة إليها. [٦٨]

وردَّ أبو حيَّان رحمه الله (ت٧٤٥هـ)صاحب البحر المحيط قول الزمخشري أنها لقصد إفادة الاختصاص فقال:"والزمخشري يزعم أنه لا يقدم على العامل إلا للتخصيص، فكأنه قال: ما نعبد إلا إياك...فالتقديم

عندنا إنما هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول".[٦٩] [٧٠]

ونجد من العلماء من قال بعدم التعارض بين الغرضين،فلا مانع أن يكون المقصد من التقديم الاختصاص مع الاهتمام كما أشار لذلك محمد بن علي الشوكاني رحمه الله(ت١٢٥٠هـ) بقوله:"وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص وقيل : للاهتمام،والصواب أنها لهما،ولا تزاحم بين المقتضيات".[٧١]

فالمعنى نخصك بالعبادة،ونخصك بالاستعانة،فلا نعبد إلا إياك ،ولا نستعين إلا بك،إذ لاتصح العبادة إلا لله،ولا تجوز الاستعانة إلا به."ولو قيل نعبدك ونستعينُك لم يُفِد نفي عبادتهم لغيره، ولا الاستعانة بغيره"[٧٢]

"والسرُّ في تكرر ﴿إِيَّاكَ﴾ للتنصيص على طلب العون منه تعالى،فإنه لو جاء﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾لاحتمل أن يكون إخباراً بطَلَبِ المعونة من غير أن يعيين من يطلب".[٧٣]

الموطن الثاني: من أغراض التقديم التي لاحظها الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ) دلالته على العناية بالمقَدَّمِ والإشارة إلى أنه المقصود بالغرض، وقد لاحظ هذا المعني في

---

[٦٧]-قال ابن المنَيّر رحمه الله:"معتقد أهل السنة أن العبد لا يستوجب على ربه جزاء- تعالى اللّه عن ذلك- والثواب عندنا- من الاعانة في الدنيا على العبادة ومن صنوف النعيم في الآخرة- ليس بواجب على اللّه تعالى، بل فضل منه وإحسان...لكن قام الدليل عقلا وشرعا على أنه تعالى لا يجب عليه شيء، فقد قام عقلا وشرعا على أن خبره تعالى صدق ووعده حق، أي يجب عقلا أن يقع، فإما أن يكون الزمخشري تسامح في إطلاق الاستيجاب وأراد وجوب صدق الخبر، وإما أن يكون أخرجه على قواعد البدعية في اعتقاد وجوب الخير على اللّه تعالى وإن لم يكن وعد". الانتصاف لابن المنَيّر ١٤/١ بتصرف يسير .

[٦٨]-الكشَّاف ٢٠/١.

[٦٩]-أغلب ما تتبع فيه أبو حيان الزمخشريَ في تفسيره في هذه القضية التفسيرية والتي مفادها: أيفيد ما حقه التأخير الاختصاص ؟أم يفيد الاهتمام ؟ فالزمخشري يتبنى الأول-وهو قول:الجمهور- وأبو حيان يتبنى الثاني،وسبب الخلاف في تلك الإفادة كونها دلالة بلاغية سياقية،وليست حكماً نحوياً قطعيا.

[٧٠]-تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٩/١ .

[٧١]- فتح القدير للشوكاني ٨٩/١ .

[٧٢]- مفاتيح الغيب للرازي ٢٥٥/١.

[٧٣]-روح المعاني للألوسي ٩٣/١.

آية النمل عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[سورة النمل:٦٨]حيث قال:"فقد قدَّم في هذه الآية "هذا" على "نحن وآباؤنا" وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[سورة النحل:٨٣] قدَّم "نحن وآباؤنا" على "هذا" والتقديم دليلٌ على أن المتقدم هو الغرض المعتمد بالذكر، وأن الكلام إنما سيق لأجله، ففي إحدى الآيتين دلَّ على اتخاذ البعث هو الذي تعمَّد بالكلام، وفي الأخرى على اتخاذ المبعوث بهذا الصدد. (٧٤)

وقال أبو حيان رحمه الله(٧٤٥هـ):"وجاء هنا تقديم الموعود به – يعني في سورة النمل –وهو هذا،وتأخر في آية أخرى على حسب ماسيق الكلام لأجله،فحيث تأكَّد الإخبار عنهم بإنكار البعث والآخرة ،عمدوا إليها بالتقديم على سبيل الاعتناء،وحيث لم يكن كذلك ،عمدوا إلى إنكار إيجاد المبعوث ،فقدّموا وأخَّروا الموعود به".(٧٥)

الموطن الثالث: قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[البقرة: ١٦٧]

يرى الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨هـ) أنَّ التقديم في قوله تعالى﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ " يدلُّ على قوة أمرهم فيما أسند إليهم،لا على الاختصاص". (٧٦)

لكنَّ العديد من العلماء قد خالفوا الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨هـ) فيما ذهب إليه من نفي الاختصاص، فهذا صاحب مفتاح العلوم يقول : "والتخصيص لازمٌ للتقديم"(٧٧) ،وكذا فعل أبو حيان رحمه الله (ت٧٤٥هـ)فقد اعترض على الزمخشري في ذلك بقوله :"وفيه دسيسة اعتزالٍ لأنه إذا لم يدلَّ على الاختصاص لا يكون فيه ردٌّ لقول المعتزلة:إن الفاسق يخلُد في النار،ولا يخرُج منها"(٧٨)

قال صاحب الانتصاف في تعليقه على كلام الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه):"أشدُّ ما أخفى في هذه الكلمات معتقداً ورب صدره كلمات فهو ينفس عن نفسه خناق الكتمان بما ينفثه منه في بعض الأحيان، وكشْفُ ذلك أن يقال: لما استشعر دلالة الآية لأهل السنة على أنَّه لا يخلُد في النار إلا الكافر،وأما العاصي – وإن أصرَّ على الكبائر– فتوحيده

٧٤-الكشَّاف ١٥٨/٣ .
٧٥-البحر المحيط لأبي حيان ٨٩/٧ .
٧٦-الكشَّاف ٢١٢/١ .
٧٧-مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٠١ .
٧٨-البحر المحيط لأبي حيان ٦٤٩/١.

يخرجه منها ولا بُدَّ وفاءً بالوعد،ووجه الدلالة منها على ذلك أنه صدر الجملة بضمير مبتدأ، ومثل هذا النظم يقتضى الاختصاص والحصر لغة،وستمُر للزمخشري مواضع يَستدّلُ فيها على الحصر بذلك، فقد قال[٧٩] في قوله تعالى:﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾[الأنبياء:٢١] أن معناه لا ينشر إلا هم...وكذلك يقول[٨٠] في أمثال قولهم﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[البقرة:٤] أن معناه الحصر أنه لا يوقن بالآخرة إلا هم، فإذا ابتنى الأمر على ذلك لزم حصر نفى الخروج من النار في هؤلاء الكفار دون غيرهم من الموحدين، لكنَّ الزمخشري يأبى ذلك، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة بفائدة تتم له على القاعدة، فيجعل الضمير المذكور يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم لاختصاصه بهم، وهم عنده بهذه المثابة، لأن العصاة وإن خُلّدوا على زعمه إلا أن الكفار أحق بالخلود وأدخل في استحقاقه منهم، فسبحان من امتحنه بهذه المحنة على حَذقه وفطنته".[٨١]

والمتأمّلُ في هذا التركيب يجد أنه"يتألف من أداة نفي (ما)،ومبتدأ (ضمير)،وخبر(وصفٌ مشتق)،وجارٌ ومجرور،وكان الأصل أن تكون الجملة فعلية لتجانس ما قبلها كأن يقال:(وما يخرجون) وعَدَل عنها إلى الجملة الاسمية للدلالة على الثبوت وإفادة الاختصاص بتقديم المسند إليه الضمير".[٨٢]

الموطن الرابع:قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم:٤٦]

ومن مواضع التقديم والتأخير التي استرعت انتباه الزمخشري(ت٥٣٨ه) هذه الآية الكريم فلاحظَ تقديم الخبر على المبتدأ فقال :" وقُدّمَ الخبر على المبتدأ في قوله:﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنَى، وفيه ضربٌ من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد".[٨٣]

قال العلوي رحمه الله (ت٦٨٣ه):"ولما سمِعَ كلامه هذا وتفطَّن لما دعاه إليه أقبل عليه بفظاظةِ الكفر،وجلافةِ الجهل،وغِلَظِ العناد فناداه باسمه،ولم يقل يابُنيَّ كما قال إبراهيم عليه

---

[٧٩]-الكشَّاف ١٠٩/٣ .

[٨٠]-المصدر السابق ٣٤٧/٣ .

[٨١]-الانتصاف لابن المنير ٢١٢/١ .

[٨٢]-لغة القرآن الكريم دراسة لسانية تطبيقية للجملة في سورة البقرة لمحمد خان بتصرف يسير ص ١٢٣ .

[٨٣]-الكشاف ٥٣٣/٤ .

السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ إعراضاً عن مقالته،وإصراراً على ماهو فيه،ثم إنه قدَّم خبر المبتدأ بقوله تعالى: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ اهتماماً بالانكار،وتمادياً في المبالغة في التعجب عن أن يكون من إبراهيم عليه السلام مثلُ هذا ".(٨٤)

"فآثر الأسلوب القرآني في هذا الموضع أن يأتي الكلام هنا على هذا النحو من التقديم والتأخير،لأن السياق في هذا الموضع يدلُّ على أن الإنكار والتعجب الذي تدلُّ عليهما الهمزة ينصبَّان على رغبة إبراهيم في ترك عبادة تلك الآلهة لا على شخصه".(٨٥)

"وهذا التعجب والإنكار دلَّ عليهما الاستفهام الانكاري،ثم دلَّت عليهما البنية التركيبية التي ورد عليها هذا الاستفهام حين قدَّم الخبر ﴿أَرَاغِبٌ﴾ على المبتد ﴿أَنتَ﴾فدلَّ على أن رغبة إبراهيم عن آلهة أبيه هي ما أنكرهُ عليه أبوهُ وتعجَّب منه ".(٨٦)

المبحث الرابع: الحذف.

"المتكلم قد يُسقطُ من الألفاظ ما يدلُّ عليها غيره،أو يُرشدُ إليها سياق الكلام،أو دلالة الحال،وأصل بلاغتها في هذه الوَجازة التي تعتمدُ على ذكاء القارئ والسامع،وتُعوّلُ على إثارة حسه،وبعث خياله،وتنشط نفسه حتى يفهم بالقرينة ،ويدرِك باللمحة،ويفطِن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير". (٨٧)

تعريف الحذف:في اللُّغة: قَطعُ الشيء من طرفه ،والحُذافة: ما حُذف من شيء فطُرِح. (٨٨)

وقد تناول البلاغيون مبحث الحَذف في مباحث عِلم المعاني في سياقات الكلام الذي يرِدُ فيها الإسناد كاملاً أحياناً،أو محذوف أحدِ الأطراف أحياناً أخرى،"ولكنَّ التطبيق العملي من خلال الكلام قد يُسقطُ أحدها اعتماداً على دلالة القرائن المقالية أو الحالية".(٨٩)

يقول الشريف محمد بن الحسين الرضي رحمه الله (ت٤٠٦ه) :"وفي القرآن من الحذوف العجيبة ،والاختصارات الفصيحة مالا يوجد في شيء من الكلام ".(٩٠)

٨٤-الطراز للعلوي ٦٩/٢ .

٨٥-المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي لمصطفى شعبان ص٢٩٨ .

٨٦-دراسات أسلوبية في تفسير الزمخشري لمسعود بودوخة ص ٢١ .

٨٧- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية محمد أبو موسي ص١٥٣.

٨٨- اللسان لابن منظور مادة حذف.

٨٩-البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ص ٣١٣.

٩٠-أمالي المرتضى للشريف الرضي ١٥٧/٣.

وإن "حديث عبد القاهر رحمه الله (ت٤٧١ه) في موضوع الحذف يعتبر مرجعاً عاماً للدارسين من بعده".[٩١]

يقول في بيان قيمته: "هو بابٌ دقيق المسلك،لطيفُ المأخذ،عجيبُ الأمر،شبيهٌ بالسحر،فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر،والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة،وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق،وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن".[٩٢]

والحذفُ على وجوهٍ فقد يكون المحذوف جملةً،وقد يكون تركيباً،وقد يحذف ماليس بجملةٍ،ولا بتركيب ،وقد أشار الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) إلى تلك الوجوه السالفة الذكر في مواطن عديدةٍ من كشَّافه لعل منها:

الموطن الأول:قال تعالى : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ٤٤]

إن من أغراض الحذف –حذف المفعول– لغرض الإيجاز وذلك ما وضحه الزمخشري في هذه الآية الكريمة حيث قال:"فإن قلتَ:هلَّا قيل: ما وعدكم ربكم، كما قيل: ما وعدنا ربنا؟ قلتُ: حُذِفَ ذلك تخفيفاً لدلالة﴿وَعَدَنَا﴾ عليه". [٩٣]

ونجد موافقة الألوسي رحمه الله(ت١٢٧٠ه) له في الغرض من الحذف فيقول:"﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بعد الاستقرار فيها كما هو الظاهر وصيغة الماضي لتحقق الوقوع والمعنى ينادي ولا بد كل فريق من أهل الجنة﴿أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾أي من كان يعرفه في الدنيا من أهلها تبجحاً بحالهم وشماتة بأعدائهم وتحسيرا لهم لا لمجرد الإخبار والاستخبار﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ على ألسنة رسله عليهم السلام من النعيم والكرامة﴿حَقّٗا﴾ حيث نلنا ذلك﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾ أي ما وعدكم من الخزي والهوان والعذاب﴿حَقّٗا﴾ وحذف المفعول تخفيفاً وإيجازاً واستغناء بالأول".[٩٤]

وكذا أشار إليه ابن عاشور رحمه الله (ت١٣٩٣ه) فقال "وحذف مفعول وعد الثاني في قوله :﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ لمجرد الإيجاز لدلالة مُقابِله عليه في قوله﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ لأن

---

[٩١]-البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية محمد أبو موسي ص١٦٦ .
[٩٢]-دلائل الاعجاز للجرجاني ص ٩٥.
[٩٣]-الكشاف ٢/ ١٠٦.
[٩٤]-روح المعاني للألوسي١٢٢/٨.

المقصود من السؤال سؤالهم عما يخصهم، فالتقدير: فهل وجدتم ما وعدكم ربكم، أي من العذاب لأن الوعد يُستعمل في الخير والشر".[٩٥]

الموطن الثاني: قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الاسراء: ٩]

ونلحظ أن الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه) يُدركُ بحسه البلاغي ذوق الحذف في بعض المواقع فيقول في سرّ حذف الموصوف في هذه الآية :" للَتي هي أَقوَمُ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها ،أو للملة، أو للطريقة، وأينما قدَّرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقدُ مع إيضاحه".[٩٦]

ويؤيده الألوسي رحمه الله (ت١٢٧٠ه) فيقول:"﴿لِلَّتِى﴾ صفة لموصوف حذف اختصاراً، وقدَّره بعضهم الحالة،أو الملة، وأيَّما قدَّرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في الإبهام من الدلالة على أنه جرى الوادي وطمَّ على القرى".[٩٧]

ويقول ابن عاشور رحمه الله(ت١٣٩٣ه):﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ صفةٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه﴿يَهْدِى﴾ أي للطريق التي هي أقوَم؛ لأن الهداية من ملازمات السير والطريق،أو للملة الأقوم، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة، ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجَّح الحذف على الذكر".[٩٨]

الموطن الثالث:في قوله تعالى:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: ٤]

يشير الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) إلى أن المفعول لا يصحُ حذفُه إذا كان تعلُّق الفعل به غريباً،ولا بدَّ حينئذٍ من ذكره كما في هذه الآية الكريمة فيقول :"عنى: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح، لكونه محالاً، ولم يتأتَّ إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم".[٩٩]

فلما كان المفعول وهو أن يكون لله ولدٌ –سبحانه– مستغربٌ في ذات الله تبارك وتعالى وجب ذكره.

---

[٩٥]-التحرير والتنوير لابن عاشور١٣٧/٨.
[٩٦]-الكشَّاف ٢/ ٢٧٢.
[٩٧]-روح المعاني للألوسي ٢٢/١٥ .
[٩٨]-التحرير والتنوير لابن عاشور٤٠/١٥ .
[٩٩]-الكشَّاف ٤/ ١٠٦.

بيدَ أن صاحب البحر المحيط يعترضُ على ما ذهب إليه الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه) من كون المفعول إنما وجب ذكره لكونه مُستَغرَباً فيقول:"إنما الذكرُ هنا ليس لما ذكره الزمخشري،وإنما لعود الضمير،إذ لو لم يذكر لم يكن للضمير ما يعود عليه".[١٠٠]

"وكلام أبي حيان رحمه الله (ت٧٤٥ه) ضعيفٌ لأن عود الضمير لا يوجب ذكر المفعول مقدماً عليه،إذ يمكن ذكرُ اللفظ الصريح بدلَ الضمير ...فذكرُ المفعول هنا متعينٌ كما قال الزمخشري(ت٥٣٨ه)،وللسبب الذي ذكره." [١٠١]

المبحث الخامس: الكناية .

تعريف الكناية:جاء في لسان العرب:"كَنَى:والكناية:أن تتكلم بشيءٍ،وتريد غيرهُ...وتكنَّى أي : تستر". [١٠٢]

وفي القاموس المحيط:"كَنَى به عن كذا يَكنِي كِنايةً:تكلَّم بما يُستدلُ به عليه،أو أن تتكلم بشيءٍ،وأنت تريد غيره،أو بلفظٍ يجاذبه جانباً حقيقة ومجاز".[١٠٣]

ويظهرُ من التعريف اللُغوي أن مادة (كنى) تدلُّ على معنى: الستر وترك التصريح إلى التلميح.

وفي الاصطلاح عرّفه الجرجاني رحمه الله(ت٤٧١ه) بقوله :"لفظٌ أريدَ به غير معناه الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينةٍ مانعة من إرادته".[١٠٤]

يقول سراج الدين يوسف السكاكي رحمه الله(ت٦٢٦ ه):"الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذِكر ما يلزمه،لينتقل من المذكور إلى المتروك".[١٠٥]

ولقد ذكر الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه) الكناية بمعناها الإصلاحي وأشار إلى فائدتها وقيمتها الأدبية، وذكر أقسامها الثلاثة المشهورة، وفرَّق بينها وبين التعريض، وذكَرَ الكناية في المفرد، ومن أوضح ما يميز به بحث الكناية في الكشَّاف، أنه أول من أثار موضوع

---

[١٠٠]-البحر المحيط٤٦٩/٧.
[١٠١]-البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري محمد أبو موسى ص ٤٠٦.
[١٠٢]-لسان العرب لابن منظور مادة كنى.
[١٠٣]-القاموس المحيط مادة كنى.
[١٠٤]-دلائل الاعجاز ص ٢٣٥.
[١٠٥]-المفتاح للسكاكي ص ٤٠٨.

ضرورة إمكان المعني الحقيقي في طريق الكناية، وأول من فصل المجاز عن الكناية، وأول من فرَّق بين الكناية والتعريض تفريقًا علميًا دقيقًا. [١٠٦]

ولقد صدَّر ابن الأثير رحمه الله (ت٦٣٧ه) كلامه في المثل السايرِ بعتابٍ على العلماء الذين استعملوا الاصطلاحين–الكناية والتعريض– بمفهومٍ واحدٍ،ولم يفرّقوا بينهما،فقال عن الكناية :"هي لفظة دلَّت على معنىً يجوز حملُه على جانبي الحقيقة والمجاز بوصفٍ جامعٍ بين الحقيقة والمجاز".[١٠٧]

ثم ذكر تعريف التعريض فقال :"هو اللفظ الدالُّ على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي".[١٠٨]

ويظهر مما سبق من كلام ابن الأثير(ت٦٣٧ه) تفريقه بينهما–الكناية والتعريض– ووضعه حداً لكلٍ منهما،ويؤكد هذه التفرقة بقوله:"والتعريض أخفا من الكناية لأن دلالتها لفظيةٌ وضعيةٌ من جهة المجاز،ودلالة التعريض من جهة المفهوم"[١٠٩]

وهو بهذا يوافق الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) فيما ذهب إليه من التفريق بينهما،ولذا يبيّن لنا الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) الفرق بين الكناية والتعريض فيقول:"فإن قلتَ: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلتُ: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له،كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة،وكثير الرماد للمضياف، والتعريض أن تذكر شيئًا تدلُّ به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم. [١١٠]

ويظهر لُنا الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه) في كشَّافه عمله في الكناية بحديثه عن هذه الظاهرة بكل ألوانها وأبعادها وذلك في المواطن التالية:

الموطن الأول: قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]

يقول الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه):"فإن قلتَ: لم عبَّر عن الإتيان بالفعل وأي فائدة في تركه إليه؟ قلتُ: لأنه فعلٌ من الأفعال تقول: أتيتُ فلانا، فيقال لك: نِعمَ ما

---

[١٠٦]-انظر:البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية محمد أبو موسي ص٤٥٦وما بعدها بتصرف يسير .

[١٠٧]-المثل السايرلابن الاثير ٤٩/٣.

[١٠٨]-المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

[١٠٩]-المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

[١١٠]-الكشَّاف ١/ ٧٥.

فعلت،والفائدة فيه أنه جارٍ مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً ،ووجَازةً تُغنيك عن طول المكنَّى عنه، ألا ترى أنّ الرجل يقول: ضربت زيداً في موضع كذا على صفة كذا، وشتمته ونكَّلتُ به، ويَعدُّ كيفياتٍ وأفعالا، فتقول: بئسما فعلت ولو ذكرتَ ما أنَّبتَه عنه لطال عليك، وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل، لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله وهو من باب الكناية التي هي شعبةٌ من شعب البلاغة،وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن". (١١١)

قال الفخر الرازي رحمه الله (ت٦٠٦ه)بنحو ما قال الزمخشري في هذه الآية الكريمة حيث قال:" لم قال﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ ولم يقل:فإن لم تأتوا به ؟ الجواب: لأن هذا أخصر من أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله،ولن تأتوا بسورة من مثله".(١١٢)

الموطن الثاني:قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾[آل عمران:٩٠]

قال الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه):"فإن قلتَ: فأي فائدة في هذه الكناية، أعني أن كنَّى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة؟ قلتُ: الفائدة فيها جليلة،وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدَّها،ألا ترى أنّ الموت على الكفر إنما يُخافُ من أجل اليأس من الرحمة." (١١٣)

وقد نقل الرازي رحمه الله (ت٦٠٦ه) كلام الزمخشري(ت٥٣٨ه) مؤيداً له(١١٤) .

وقال أبو القاسم عمر بن محمد البيضاوي رحمه الله(ت٦٧٥ه):"﴿لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك فكنَّي عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وزيادة كفرهم".(١١٥)

الموطن الثالث:قال تعالى:﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]

١١١-المصدر السابق ١/ ١٠١.
١١٢-مفاتيح الغيب للرازي ١/ ٢٥٩.
١١٣-الكشَّاف ١/ ٣٨٣.
١١٤- مفاتيح الغيب للرازي٣ / ١٢٨ .
١١٥-أنوار التنزيل للبيضاوي١/ ٢٠ .

قال الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه):"فإن قلتَ: بمَ تعلقت الباء؟ وما معنى التوكيد؟ قلتُ: إما أن يتعلق بمحذوفٍ كأنه قيل: فبما نقضهم ميثاقهم فعلنا بهم ما فعلنا،وإما أن يتعلق بقوله﴿حَرَّمْنَاعَلَيْهِمْ﴾ على أن قوله﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بدلٌ من قوله﴿فَبِمَانَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ وأما التوكيد فمعناه تحقيق أن العقاب،أو تحريم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد وما عَطفَ عليه من الكفر وقتل الأنبياء وغير ذلك"[١١٦]

يقول أبوعبدالله محمد بن أحمد القرطبي رحمه الله (ت٦٧١ه):" وقوله تعالى : ﴿فَبِمَانَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾...والباء متعلقة بمحذوف، التقدير: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم".[١١٧]

ويقول ابن عاشور رحمه الله (ت١٣٩٣ه) مؤيداً ما ذهب إليه الزمخشري:"ومتعلق قوله: ﴿فَبِمَانَقْضِهِم﴾: يجوز أن يكون محذوفاً، لتذهب نفس السامع في مذاهب الهول وتقديره: فعلنا بهم ما فعلنا،ويجوز أن يتعلق بـــــــ ﴿حَرَّمْنَاعَلَيْهِمْ﴾" [١١٨]

المبحث السادس: المجاز .

تعريف المجاز:في اللغة :قال الزمخشري في أساسه :"جوز قطعوا جوز الفلاة،وأجواز الفلا...وجُزت المكان وجاوزته".[١١٩] وجاء في لسان العرب:"جوز:جُزتُ لطريق،وجاز الموضع جوازاً،ومجازاً،وجازَه سار فيه وسلكه،والمجازُ الموضع".[١٢٠]وفي القاموس المحيط:"والمجاز:الطريق إذا قُطع من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر،وخلاف الحقيقة".[١٢١]

ويظهر من مجموع التعريفات السابقة أن المراد بالمجاز في اللغة:إنتقالٌ من مكانٍ لآخر،أخذ هذا المعنى واستعمل للدلالة على نقل الألفاظ من معنىً لآخر.

وفي الاصطلاح:عُرّف بأنه:"اللفظ المستعمل في غير ما وضع له"[١٢٢] وقيل:"الكلمة المستعملة في غير ماهي موضوعة له".[١٢٣]

---

[١١٦]-الكشّاف ٢٢٥/١.
[١١٧]-الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠٨/٧.
[١١٨]-التحرير والتنوير لابن عاشور ١٧/٦.
[١١٩]-أساس البلاغة مادة :جَوَز.
[١٢٠]-لسان العرب لابن منظور ماد :جَوَز.
[١٢١]-القاموس المحيط للفيروزأبادي مادة:جَوَز.
[١٢٢]-انظر: روضة الناظر لابن قدامة المقدسي ص ٤٦.
[١٢٣]-انظر: مفتاح العلوم للسكاكي ص ٥٨٩.

إن المستقرئ للجانب التأريخي لظهور المجاز يجد أن العرب لم يعرف عنهم تقسيم الكلام إلى حقيقة،ومجاز،ولم يذكر عنهم التعبير بلفظ المجاز الذي هو قسيم الحقيقة،وإنما هو اصطلاحٌ حادثٌ بعد القرون المفضلة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت٧٢٨ه) :"فهذا التقسيم اصطلاحٌ حادثٌ بعد انقضاء القرون الثلاثة ،لم يتكلم به الصحابة ،ولا التابعين لهم بإحسان ،ولا أحدٌ من الأئمة المشهورين في العلم...بل و تكلم به أئمة اللغة...ولا من سلف الأمة وعلمائها،وإنما هو اصطلاحٌ حادثٌ...فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقةٍ،ومجاز إنما اشتهر في المائة الرابعة،وظهرت أوائله في المائة الثالثة،وما علمته موجوداُ في المائة الثانية ".[١٢٤]،وكذا قال تلميذه شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم رحمه الله(ت٧٥١ه)." [١٢٥]

ولأجل هذا فقد اختلف العلماء رحمهم الله في القول بالمجاز،ووقوعه على أقوال نوجزها فيما يلي :

القول الأول:القول بجوازه ووقوعه مطلقاً وإليه ذهب الجمهور.

القول الثاني:المنع منه مطلقاً وذهب للقول به بعض العلماء،والمحققين منهم كشيخ الإسلام ابن تيمية(ت٧٢٨ه) ،وتلميذه ابن القيم(ت٧٥١ه).

القول الثالث: المنع منه في القرآن والسنة وقال به داود بن علي الظاهري رحمه الله(ت٢٧٠ه):". [١٢٦]

بينما يرى الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه) أنَّ المجاز:من باب التوسع في اللغة وقد عرَّف الزمخشري كثيراً من علاقات المجاز المرسل،وهو وإن لم يكن يهتم كثيراً بوضع تسمياتٍ،أو مصطلحاتٍ فإنه قد يشرحها على نحوٍ يدلُ تماماً على فهمه لها، وإدراكه الكامل لمدلولاتها، ونسوق طرفاً من توجيهاته البلاغية في المجاز الواردة في الكشَّاف في النحو التالي:

الموطن الأول: قال تعالى:﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٧]

---

[١٢٤]-مجموع الفتاوى ٢٨/٧ وما بعدها.

[١٢٥]-وقد ذكراً خمسين وجهاً لإبطاله .انظر :مختصر الصواعق المرسلة ٥/٢ وما بعدها.

[١٢٦]-انظر هذه الأقوال وأدلتها في بحث:المجاز عند الأصوليين بين المجيزين والمانعين للدكتور عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس وقفية الملك غازي للفكر القرآني ص٨-١٢.

قال الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه):": فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. (١٢٧)

"ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير اللَّه للَّه، فيكون الختم مسنداً إلى اسم اللَّه على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة".(١٢٨)

قد يلجأ البلاغي إلى التعليل،والجدلِ في مَعرَض الدفاع عن أفكاره النظرية،"وقد يلجأ إلى التعليلِ،والجدلِ أثناء معالجته للنصوص، وهذا ما توخاه الزمخشري في توجيهه للآية مدافعاً عن معتقده بطريقةٍ جدليةٍ كلامية." (١٢٩)

والذي تقرر عند أهل السنة والجماعة إثبات هذا الختم على حقيقته التي أثبتها الله لنفسه،وذكرها في كتابه.

قال محمد بن جرير الطبري رحمه الله(ت٣١٠ه) :"والحق في ذلك عندي ما صَحَّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله ﷺ...فأخبر ﷺ أنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الخَتْم من قبل الله عز وجلَّ والطبع فلا يكون للإيمان إليها مَسْلك، ولا للكفر منها مَخْلَص، فذلك هو الطَّبع،والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾.(١٣٠)

ولذا فقد نقل القرطبي رحمه الله(ت٦٧١ه) إجماع الأمة على ان الله عزَّ وجلَّ قد وصف نفسه بالختم على قلوب الكافرين مجازاة بكفرهم.(١٣١)

قال عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير رحمه الله(ت٧٧٤ه):"وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير هاهنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيحٌ عنده – تعالى الله عنه– في اعتقاده".(١٣٢)

١٢٧-الكشّاف ١/ ٤٩.

١٢٨- المصدر السابق ١/ ٥٠.

١٢٩- تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية لمهدي صالح السمرائي ص ١٥٢.

١٣٠– تفسير الطبري ٨٧/١ .

١٣١- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨٧/١.

١٣٢- تفسير ابن كثير ٤٦/١.

"والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدلُّ على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان،أو بيَّنه له،وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختياراً فلما تكرَّر منهم صار طبيعة وسجية فتأمل هذا المعنى في قوله :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:٦- ٧]ومعلومٌ أن هذا ليس حكما يعمُّ جميع الكفار بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارا قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير وبعضهم بالطمس على أعينهم فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه كما يعاقب بالعذاب كذلك".(١٣٣)

الموطن الثاني:قال تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]

قال الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه):":فإن قلتَ: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ قلتُ: هو من الإسناد المجازى، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يَتلبَّسُ بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشترين".(١٣٤)

ويؤيدُ الرازي رحمه الله(ت٦٠٦ه) ما ذهب إليه الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه):" فيقول:" أما قوله :﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ فالمعنى أنَّهم ما ربحوا في تجارتهم، وفيه سؤالان: السؤال الأول: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ؟ الجواب:هو من الإسناد المجازي وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشتري".(١٣٥)

١٣٣-شفاء العليل لابن القيم١٦٠.
١٣٤-الكشاف١/ ٧٠.
١٣٥-مفاتيح الغيب للرازي٢/٧٣.

وكذا قال ابن عاشور رحمه الله(ت١٣٩٣ه) في تفسيره:" وإنما أسند الربح إلى التجارة حتى نفي عنها، لأن الربح لما كان مسبباً عن التجارة وكان الرابح هو التاجر صح إسناده للتجارة لأنها سببه فهو مجاز عقلي، وذلك أنه لولا الإسناد المجازي لما صح أن يُنفى عن الشيء ما يعلم كل أحد أنه ليس من صفاته لأنه يصير من باب الإخبار بالمعلوم ضرورة "[١٣٦].

الموطن الثالث:قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الاسراء: ١٦]

يقول الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه):" في معرض حديثة عن هذه الآية الكريمة:" أمرناهم فَفَسَقُوا أي أمرناهم بالفسق ففعلوا،والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا، وهذا لا يكون فبقى أن يكون مجازاً ووجه المجاز أنه صبَّ عليهم النعمة صباً، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه،وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ، كما خلقهم أصحاء أقوياء،وأقدرهم على الخير والشرّ، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمّرهم". [١٣٧]

قال الرازي رحمه الله(ت٦٠٦ه) في معرض رده على الزمخشري رحمه الله (ت٥٣٨ه) في عُدُولِه للقول بالمجاز:"ولقائل أن يقول كما أن قوله أمرته فعصاني، يدلُّ على أن المأمور به شيء غير الفسق؛ لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به، كما أن كونه معصيةً ينافي كونها مأموراً بها، فوجب أن يدلَّ هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق هذا الكلام في غاية الظهور، فلا أدري لمَ أصرَّ صاحب الكشَّاف على قوله مع ظهور فساده فثبت أن الحق ما ذكروه، وهو أن المعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة، وهي الإيمان والطاعة، والقوم خالفوا ذلك عناداً، وأقدموا على الفسق".[١٣٨]

قال ابن المنيّر رحمه الله(ت٦٨٣ه)معلقاً على كلام الزمخشري(ت٥٣٨ه):":" نصٌ حسنٌ إلا قوله:أنهم خولوا النعم ليشكروا فإنه فرَّعه على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة،

[١٣٦]-التحرير والتنوير لابن عاشور١/٣٠٠.
[١٣٧]-الكشاف ٢/ ٦٥٤.
[١٣٨]-تفسير مفاتيح الغيب للرازي٩/١٣٩ .

والحق أنهم خولوها وأُمِرُوا بالشكر، ففسقوا وكفروا على خلاف الأمر، والأمر غير الارادة على قاعدة أهل الحق، والله الموفق".[١٣٩]

"كما أن الإرادة هي الإرادة الكونية القدرية،وليست الإرادة الشرعية الدينية،ويتبين هذا من عدة وجوه"[١٤٠]

والحق والله أعلم أن الأمر هنا على حقيقته لا يصحُ صرفه إلى المجاز لأن الأمر هنا ليس الأمر الديني الشرعي وإنما "الأمر في هذه الآية هو الأمر الكوني القدري".[١٤١]

المبحث السابع:التهكم.

التهكم لغة:تَهكمتِ البئر إذا تهدَّمت،والمتهكم المحتقر،والتهكم التكبُّر،والتهكم التَّهزُّؤ،والاستهزاء، والاستخفاف ،والطعن"[١٤٢]

تعريفه في الاصطلاح:قيل في تعريفه هو:"فنٌ من فنون البديع،يُقصدُ به إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال،فظاهره جدٌّ وباطنه هزلٌ،فلا تخلو ألفاظه من لفظةٍ من اللفظ الدالّ على نوعٍ من أنواع الذمّ،أو لفظةٍ يُفهم من فحواها الهجو".[١٤٣]وقيل:"هو كل كلامٍ أُخرج على ضدّ مقتضى الحال[١٤٤] استهزاءً بالمخاطب".[١٤٥] "والتهكم تهاونٌ من القائل بالمقول له،واستهزاءٌ به،وهو أغيظ للمستهزأ به،وأشد أثراً".[١٤٦]

وتبدو العلاقة بين المعنى اللُغوي والاصطلاحي للتهكم واضحةً من وجهين:

الوجه الأول:أن حاصل المعنى في اللغة الاستهزاء والانتقاص من المخاطب،وكذا في الاصطلاح،فإن الضابط له الاستهزاء والتحقير.

الوجه الثاني:في كلا المعنيين خروج عن الأصل،ومخالفة لمقتضى الحال.

---

[١٣٩]-الانتصاف لابن المنيّر ٦٥٤/٢.

[١٤٠]-شفاء العليل لابن القيم ص ٨٨-٨٩.

[١٤١]- تفسير ابن كثير٥٨/٥.

[١٤٢]-تهذيب اللغة للأزهري ٢٢/٦،ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥٩/٦،ولسان العرب لابن منظور ٦١٧/١٢.

[١٤٣]-انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٥٨/٤.

[١٤٤]-مقتضى الحال :"أي أن يكون الكلام مطابقاً للحال التي يتحدث عنها،ومناسباً للموقف الذي يتحدَّث عنه" معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب المجمع العلمي العراقي ٢٩٦/٣ .

[١٤٥]-الصحاح في اللغة للجواهري،فصل اللام.

[١٤٦]-الدر المصون للسمين الحلبي ٦٢٩/٩.

ومع هذا الاتفاق فإن المعنى اللُغوي يبقى أعمّ وأشمل لكونه يشتمل على كل صورةٍ،أو اسلوبٍ من أساليب التعبير التي تهدف إلى الاستهزاء بالمخاطب،وإيقاع السخرية به أيّاً كان.

والتهكم كظاهرة أسلوبية مصطلحٌ بديعي تجتمع فيه عِدَةُ أساليب،فالخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير،وبالبشارة في موضع التحذير،وبالوعد في مكان الوعيد،وبالعذر في موضع اللوم ونحوها،وهذه الأساليب مجتمعة ترجع إلى أصلٍ واحدٍ،وهو ما أسماه الزمخشري في بعض المواضع بالعكس في الكلام وسنتعرض لبعض الآيات التي تحدَّث فيها الزمخشري عن هذا الأسلوب في المواطن التالية:

الموطن الأول:قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: ١٣٨]

قال الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨هـ) :"﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وضع ﴿بَشِّرِ﴾ مكان: أخبِر، تهكماً بهم".(١٤٧)

ولقد سار المفسرون على هذا الاختيار الذي ذكره الزمخشري فهذا أبو حيان رحمه الله(ت٧٤٥هـ) يقول في تفسيره عند هذه الآية:" الخطاب للرسول ومعنى﴿بَشِّرِ﴾ أخبر، وجاء بلفظ﴿بَشِّرِ﴾ على سبيل التهكم بهم نحو قوله :﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾[آل عمران: ٢١] أي القائم لهم مقام البشارة، هو الإخبار بالعذاب".(١٤٨)

وكذا قال إبراهيم بن عمر البقاعي رحمه الله(ت ٨٨٥هـ) في نظم دُرره:" ولما كانت جميع صور الآية منطبقة على النفاق؛ بعضها حقيقة؛ وبعضها مجازا؛ قال – جواباً لمن كأنه سأل عن جزائهم– متهكماً بهم:﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ".(١٤٩)

وتابعهم في ذلك ابن عاشور(ت١٣٩٣ه) في تحريره فقال:" ولما كان التظاهر بالإيمان ثم تعقيبه بالكفر ضرباً من التهكم بالإسلام وأهله، جيء في جزاء عملهم بوعيد مناسب لتهكمهم بالمسلمين، فجاء به على طريقة التهكم إذ قال :﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾فإن البشارة هي الخبر بما يفرح المخبر به،وليس العذاب كذلك".(١٥٠)

الموطن الثاني:قال تعالى:﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩].

١٤٧-الكشَّاف ٣٠٥/١.

١٤٨-البحر المحيط٣٨٩/٣ .

١٤٩-نظم الدرر للبقاعي٨/٢ .

١٥٠-التحرير والتنوير لابن عاشور٢٣٣/٥ .

قال الزمخشري رحمه الله :"ومن الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير قوله تعالى:﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ تحقيراً لأبي جهل وتهكماً به وتعييراً له على قوله:أنا ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾". (١٥١)

قال أبو البركات عبدالله بن أحمد النسفي رحمه الله(ت٧١٠ه):"﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾" على سبيل الهزؤ، والتهكم".(١٥٢)

وكذا قال أبو الفرج جمال الدين بن محمد القاسميرحمه الله (ت١٣٣٢ه):"أي: يقال له ذلك، على سبيل الهزؤ والتهكم، فيتمُّ له، مع العذاب الأول –وهو الحسي– العذاب العقلي".(١٥٣)

وتبعهم ابن عاشوررحمه الله(ت١٣٩٣ه) في هذا المعنى فقال:"وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾خبرٌ مستعملٌ في التهكم بعلاقة الضدية." (١٥٤)

الموطن الثالث:قال تعالى:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٣]

قال الزمخشري رحمه الله(ت٥٣٨ه) عن التهكم في هذه الآية الكريمة:" وأرادوا بقولهم : ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغي فعكسوا ليتهكموا به، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يَبِضُّ حَجَره " .(١٥٥)

قال إبراهيم بن عمر البقاعي رحمه الله (ت ٨٨٥ه):" ﴿إِنَّكَ﴾ إذا ﴿لَأَنتَ﴾ وحدك ﴿الْحَلِيمُ﴾ في رضاك بما يغضب منه ذوو الأرحام﴿الرَّشِيدُ ﴾ في تضييع الأموال، يريدون بهذا –كما زعموا – سلخه من كل ما هو متصف به دونهم من هاتين الصفتين الفائقتين بما خيَّل إليهم سفههم أنه دليلٌ عليه قاطع، وعَنَوا بذلك نسبته إلى السفه والغي على طريق التهكم." (١٥٦)

وذهب ابن عاشور رحمه الله(ت ١٣٩٣ه) للقول بهذا الاختيار فقال:" وجملة:

١٥١–الكشَّاف٣ / ٤٣٤ .

١٥٢–مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي٢٩٥/٣ .

١٥٣–محاسن التأويل للقاسمي٣١٤/١٤.

١٥٤–التحرير والتنوير لابن عاشور٣١٦/٢٥ .

١٥٥–الكشَّاف٣ / ٤٣٤ .

١٥٦–نظم الدرر للبقاعي٩٤/٩.

﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ استئناف تهكمٍ آخر،وقد جاءت الجملة مؤكدة بحرف إنَّ ولام القسم وبصيغة القصر في جملة:﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ...والحليم، زيادة في التهكم".(١٥٧)

الخاتمة

يُعدُّ الكشاف نقطة تحول بارزة في منهج المفسرين فهو يعتني ويجمع بين المعاني النَحْوية،واللغوية والبلاغية،فهو يمثل ثروة بلاغية كبيرة في المعاني والبيان، ولا شك أن ما خطى الكشاف بهذه المنزلة إلا لأن صاحبه يُعدُّ من أصحاب النظر في علوم البلاغة التي بها يدرك وجه الإعجاز القرآني.

ومن خلال هذا البحث المقتضب عن التوجيهات البلاغية عند الزمخشري رحمه الله فقد خلصت إلى بعض النتائج ومنها:

١ –أن أول من أخضع نظرية النظم إلى حيّز التطبيق هو الزمخشري الذي اتخذها سبيلاً للكشف عن إعجاز النظم القرآني.

٢–بلاغة الزمخشري وقوة حجته،ومعرفته باللسان العربي جعلته كثيراً ما يُطَّوع النصوص لتوافق مذهبه الاعتزالي.

٣– أن الزمخشري لم يقصر بواعث الالتفات على باعثٍ واحدٍ، وهو تطرية لنشاط السامع،وإيقاظ للإصغاء إليه، بل كان مقصودهُ أن الانتقال عامة من أسلوب إلى آخر يجعل السامع يتنّبه على حدوث شيء ما وهو ما يدفعه إلى إيقاظ سمعه وبصره،ولم يكن قصده الاختصار على هذه الغاية في الالتفات، بدليل أن كتابه (الكشَّاف) حافلٌ بالغايات والفوائد لهذه الظاهرة.

٤–الزمخشري أوَّلُ من أثار موضوع ضرورة إمكان المعني الحقيقي في طريق الكناية، وأوَّلُ من فصل المجاز عن الكناية وأوَّلُ من فرَّقَ بين الكناية،والتعرض تفريقًا علمياً دقيقاً.

٥–لم يكن كلام الزمخشري في الحذف مقصوراً على بيان المحذوف كما هو الحال عند كثيرٍ من البلاغيين،وإنما كان يبحث سرَّه ،ويكشف ما ينطوي عليه من معنىً بلاغي.

١٥٧–التحرير والتنوير لابن عاشور١٢/١٤٢ .

٦-المستقرئ للجانب التأريخي لظهور المجاز يجد أن العرب لم يعرف عنهم تقسيم الكلام إلى حقيقةٍ،ومجاز ،ولم يذكر عنهم التعبير بلفظ المجاز الذي هو قسيم الحقيقة،وإنما هو اصطلاحٌ حادثٌ بعد القرون المفضلة.

وفي نهاية هذا البحث فقد توصلت إلى عدة توصيات أوجزها فيما يلي :

١-أهمية العناية بالتوجيهات البلاغية عند الزمخشري واستقصاء ما ذكره حولها.

٢-دراسة التوجيهات البلاغية التي خالف فيه أبو حيان الزمخشري من خلال استدراكاته عليه في تفسيره البحر المحيط.

٣-دراسة التوجيهات البلاغية في التفاسير التي اعتنت بالجوانب البلاغية كتفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي رحمه الله (ت٦٠٦ه)،وكتفسير إرشاد العقل السليم لأبي السعود رحمه الله (ت٩٨٢ه).

قائمة المصادر والمراجع

١-القرآن الكريم.

٢-آراء الزمخشري في المفصل التي خالفها في الكشاف الحربي عبد العزيز محمد التويجري مجلة العلوم العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد(١٨) (٢٠١٠)ص٧٢ .

٣-إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب الحموي ياقوت بن عبدالله الطبعة الأولى بيروت دار الغرب الإسلامي ١٤١٤ه.

٤-إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود محمد مصطفى الطبعة الثانية بيروت إحياء التراث العربي ١٤١١ه.

٥-أساس البلاغة الزمخشري جار الله محمود تحقيق محمد باسل الطبعة الأولى بيروت دار الكتب العلمية ١٤١٩ه.

٦-إعجاز القرآن الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب الطبعة الثانية مصر مكتبة مصر٢٠٠٥م.

٧-إعجاز القرآن الكريم عباس فضل حسن الأردن عمَّان مكتبة وهبة١٩٩١م .

٨-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الرافعي مصطفى صادق بيروت دار الكتاب العربي١٤٢٤هـ.

٩- الأعلام الزركلي خير الدين الطبعة العاشرة بيروت دار العلم للملايين٢٠٠٢م.

-الالتفات في السرد القرآني بشارات أحمد محمد حسين رسالة دكتوراه كلية الآداب

جامعة اليرموك٢٠١٥م.
١١-الالتفات في القرآن الهيشري الشاذلي حوليات الجامعة التونسية كلية الآداب والفنون العدد(٣٢) (١٩٩١)ص١٤١
١٢-الانتصاف في بيان اعتزاليات الكشّاف ابن المنيّر أحمد بن محمد الطبعة الأولى بيروت دار الريان ١٤١٨ه.
١٣-الإيضاح في علوم البلاغة القزويني جلال الدين محمد الطبعة الأولى القاهرة مطبعة السنة المحمدية٢٠٠٥م.
١٤-البحر المحيط في التفسير أبو حيان محمد بن يوسف الطبعة الأولى بيروت دار الفكر ١٤٢٠ه.
١٥-البرهان في علوم القرآن الزركشي بدر الدين تحقيق محمد أبو الفضل الطبعة الأولى بيروت دار الريان ١٣٧٦ه.
١٦-البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري أبو موسي محمد حسنين الطبعة الأولى القاهرة دار الفكر العربي ١٩٨٠م.
١٧-البلاغة والأسلوبية عبدالمطلب محمد الطبعة الأولى بيروت مكتبة البيان ١٩٩٤م.
١٨-التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة الهجري قصّاب وليد الطبعة الأولى الدوحة قطر دار الثقافة ١٩٨٥م .
١٩-التفسير والمفسرون الذهبي محمد حسين الطبعة السابعة مصر مكتبة وهبة للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م .
٢٠ -التلخيص في علوم البلاغة القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الطبعة الأولى مصر دار الفكر العربي ١٩٠٤م .
٢٠-الجامع لأحكام القرآن القرطبي محمد بن أحمد الطبعة الثانية مصر دار الكتب المصرية ١٣٨٤ه.
٢١-الدر المصون في علوم الكتاب المكنون الحلبي شهاب الدين أحمد الطبعة الثانية بيروت دار القلم٢٠١٠م.
٢٢-الطراز المتضمن لأسرار البلاغة العلوي يحيى بن حمزة تحقيق محمد الطبعة الأولى بيروت مكتبة البيان ١٤١٥ه.
٢٣-الفائق في غريب الحديث الزمخشري جار الله محمود بن عمر تحقيق الطبعة

الثانية بيروت دار المعرفة٢٠٠٥م.
٢٤-الفهم الجمالي للتركيب اللغوي: دراسة في الكشاف للزمخشري خضر السيد علي محمد مجلة كليات المعلمين وكالة وزارة التعليم العالي لكليات المعلمين المجلد(١) العدد(١) ٢٠٠٧ ص١٢٤.
٢٥-القاموس المحيط الفيروز آبادي محمد بن يعقوب الطبعة الثامنة بيروت الرسالة ١٤٢٦ه .
٢٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري جار الله محمود الطبعة الثالثة بيروت دار الكتاب العربي ١٤٠٧ه.
٢٧- المثل السايرفي أدب الكاتب والشاعر ابن الأثير ضياء الدين الطبعة الثانية مصر القاهرة دار نهضة ٢٠١٠م
٢٨- المجاز عند الأصوليين بين المجيزين والمانعين السديس عبدالرحمن بن عبدالعزيز وقفية الملك غازي للفكر القرآني٢٠٠٩م ص٨-١٢.
٢٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية محمد بن عبد الحق الطبعة الأولى بيروت الكتب العلمية ١٤١٣هـ.
٣٠-المسائل الاعتزالية الواردة في الكشاف الغامدي صالح غرم الله الطبعة الأولى السعودية دار الأندلس ١٤١٨هـ
٣١-المقدمة ابن خلدون لولي الدين عبدالرحمن تحقيق علي عبدالواحد دار النهضة القاهرة الطبعة الثالثة٢٠٠٩.
٣٢-المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية عبدالحميد مصطفى شعبان الطبعة الأولى المكتب الجامعي ٢٠٠٧م.
٣٣-النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن دراز محمد عبد الله الطبعة السادسة الكويت دار القلم ١٤٠٥هـ .
٣٤-أمالي المرتضى الرضي الشريف محمد بن الحسين الطبعة الثانية مصر إحياء الكتب العربية٢٠٠٨م.
٣٥-إنباء الرواة على أنباء النحاة القفطي علي بن يوسف تحقيق محمد أبو الفضل الطبعة الثانية بيروت دار الفكر العربي ١٤٢٤ه.
٣٦-أنوار التنزيل وأسرار التأويل البيضاوي عبد الله بن عمر تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي الطبعة الأولى بيروت دار إحياء التراث العربي ١٤١٨ه.

٣٧-بيان إعجاز القرآن الخطابي حمد بن محمد محمد خلف الله الطبعة الأولى القاهرة دار المعارف ١٣٨٧ه.
٣٨-بيان في إعجاز القرآن الديب محمد السباعي الطبعة الثانية القاهرة مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ١٩٩٠م.
٣٩-تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) رشيد رضا محمد الطبعة الثانية مصر دار الفكر٢٠٠٩م .
٤٠-تفسير القرآن العظيم ابن كثير للإمام عماد الدين إسماعيل الطبعة الأولى مصر دار الفيحاء ١٤١٣ هـ.
٤١-تفسير الكشاف بين التحليل والتأويل العسكر عبد المحسن بن عبد العزيز مجلة العلوم العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد(٣٣) (٢٠١٤) ص٨٧/٨٩.
٤٢-تنوع صور الالتفات في القرآن الكريم الحاج عبدالقادر إسماعيل ماجستير جامعة أم درمان ١٤٢٨ه.
٤٣-تهذيب اللغة الأزهري محمد بن أحمد تحقيق محمد عوض الطبعة الأولى بيروت دار إحياء التراث ٢٠٠١م.
٤٤-جامع البيان عن تأويل آي القرآن الطبري محمد بن جرير الطبعة الأولى مصر دار هجر ١٤٢٢ه.
٤٥-دلائل الإعجاز الجرجاني عبدالقاهر بن عبدالرحمن تحقيق محمود شاكر الطبعة الثانية مصر مكتبة الخانجي٢٠٠١م.
-دلائل النبوة البيهقي أحمد بن الحسين تحقيق عبدالمعطي قلعجي الطبعة الأولى بيروت دار الكتب العلمية١٤٠٥
٤٧-روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني الألوسي محمود بن عبدالله الطبعة الأولى بيروت دار الكتب العلمية ١٤١٥ه .
٤٨-روضة الناظر وجنة المناظر ابن قدامة موفق الدين المقدسي الطبعة الثانية مصر مؤسسة الريان ١٤٢٢ه.
٤٩-شرح الشواهد الشعرية في أمهات الكتب النحوية شُرَّاب محمد حسن الطبعة الأولى بيروت الرسالة ١٤١٧ه.

٥٠-شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم محمد بن أبي بكر الطبعة الثانية مصر دار التراث٢٠٠٨م.
٥١-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية الشوكاني محمد بن علي الطبعة الأولى بيروت دار ابن كثير ١٤١٤ه.
٥٢-كيف نقرأ تراثنا البلاغي أبو علي محمد بركات الطبعة الأولى عمَّان دار وائل ١٩٩٩م.
٥٣-لسان العرب ابن منظور محمد بن علي الطبعة الأولى بيروت طبعة دار الجيل ١٩٨٨م.
٥٤-لسان الميزان ابن حجر أحمد بن علي الطبعة الثانية بيروت مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٩٧١م.
٥٥-لغة القرآن دراسة لسانية تطبيقية للجملة في سورة البقرة خان محمد الطبعة الثانية مصر دار الهدى ٢٠٠٤م.
٥٦-مجموع الفتاوى ابن تيمية أحمد بن عبدالحليم الطبعة الثالثة الرياض الرئاسة العامة للبحوث١٤١٨ه .
٥٧-محاسن التأويل القاسمي محمد جمال الدين تحقيق محمد باسل الطبعة الأولى بيروت دار الكتب العلمية ١٤١٨ه.
٥٨-مختصر الصواعق المرسلة ابن القيم محمد بن أبي بكر الطبعة الأولى بيروت دار الندوة الجديدة ٢٠٠٩م.
٥٩-مدارك التنزيل وحقائق التأويل لحافظ الدين عبدالله بن أحمد النسفي (ت٧١٠ه) تحقيق يوسف عبي بديوي دار الكلم الطيب بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩ه
٦٠-مصطلح التخييل مفهومه وموقف الزمخشري منه المشيني مصطفى إبراهيم مجلة المنارة للبحوث والدراسات جامعة آل البيت المجلد(١١) العدد(٣) (٢٠٠٥)ص٩٤.
٦١-مع جار الله الزمخشري عبده عبد العزيز دارة الملك عبد العزيز،المجلد (٧) العدد (١) (١٩٨١م) ص٢٠٢.
٦٢-معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب الطبعة الأولى المجمع العلمي العراقي ١٤٠٣ه.
٦٣-مفاتيح الغيب لمحمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦ه) الطبعة الأولى بيروت دار الفكر ١٤٠١ه.

٦٤-مفتاح العلوم السكاكي يوسف بن أبي بكر تحقيق نعيم زرزور الطبعة الثانية بيروت مكتبة الريان ١٩٨٧م
٦٥-مقدمة في أصول التفسير ابن تيمية أحمد بن عبدالحليم الطبعة الأولى بيروت مكتبة الحياة ١٤٠٩ه.
٦٦-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي إبراهيم بن عمر الطبعة الثانية القاهرة دار الكتاب الإسلامي ٢٠١٠م.

Rhetorical directives in Quranic exegesis
Alkashaf of Zamakhshari as a model

Researcher name: Abdullah Ma'il Al Hader Al-Qahtani
Rank: Assistant Professor
Faculty of Arts, Bisha University

Summary

This research dealt with talking about the rhetorical directives of Al-Zamakhshari through his book Alkashaf. The research plan included the definition of Al-Zamakhshari and his interpretation of the scouts, and then the researcher discussed some of the rhetorical directives of Al-Zamakhshari in his scout in seven topics during which he explained the words of the interpreters in what Al-Zamakhshari went to him of his choices, then The research concluded by mentioning the most important results that he reached, and the recommendations that he recommends .through his research. We ask ALLAH for success